مصطفى صادق الرافعي

الحياة والشباب

نظرات

الطبعة الأولى — سنة ١٩٤٩ م

مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ت ٤٨٥٨٠ بمصر

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

أيها الشباب ! . . . في أي بلد عربي كنت .

أنت الأمل ، وبك تتحقق الآمال في المستقبل ! . . .

من أجلك ألف هذا الكتاب ، فاليك أهديه .

المؤلف

obeikandl.com

obeikandl.com

كلمة

الدكتور طه حسين بك

هذا كتاب شارك فى تأليفه القلب والعقل جميعا . بث فيه القلب قوة العاطفة ودقة الحس وصدق الشعور ، وأشاع فيه العقل صواب الرأى ونفاذ البصيرة وبعد النظر وحسن الاستقصاء . لم يكتبه صاحبه لأنه أراد أن يكون له كتاب ، كما أن لغيره من المفكرين والمثقفين كتبا ، وانما كتبه لأنه أحس حاجة ملحة إلى كتابته وضرورة ملزمة بتأليفه . وقد نشأ إحساسه بهـــذه الضرورة وتلك الحاجة من هذه العاطفة النبيلة الكريمة السامية التى يمتاز بها ذوو النفوس المتحضرة وهى عاطفة الحب والاخلاص للمواطنين . والمواطنون عند الأستاذ واصف البارودى ليسوا هم أبناء وطنه لبنان ، الذى تحصره حدوده الجغرافية والسياسية ، وإنما هم أبناء العالم العربى كله من الخليج الفارسى إلى المحيط الاطلنتى ، أو إلى بحر الظلمات كما كان القدماء يقولون . وأكاد اعتقد أن المواطنين عند الأستاذ واصف البارودى ليسوا هم أبناء هذا العالم العربى وحدهم ، وإنما هم أبناء الانسان فى أقطار الأرض كلها . فليس الاستاذ واصف البارودى أثرا ولا مستأثرا لنفسه وبنى جنسه بالخير والعافية ، وإنما هو يحب أن تمتلىء الأرض خيرا كلها ، وان يشيع فى الناس من الثقة والأمل ، ومن التضامن والتعاون والحب ، مايجعل الحياة خليقة ان نرغب فيها ونحرص عليها ونتزيد منها .

والأستاذ واصف البارودى لاينسى الماضى ، ولكنه لايقصر جهده على الحاضر ، وإنما يفكر فى المستقبل ، ويكاد لايفكر إلا فيه ، كأنه قد وطن نفسه على ماينبغى أن يوطن الرجال نفوسهم عليه من أن الحياة دولة بين الأجيال ، تنقلها الاجيال الناشئة التى تستقبل الحياة عن الاجيال المولية التى تستدبر الحياة . ولكنه لايحب أن يكون توارث الحياة عملا يسيرا سلبيا ، لا إيجاب فيه ، بحيث يلقى الآباء أعباءهم الى الابناء كما تلقوها عن آبائهم ، وبحيث يتلقى الابناء هذه الاعباء عن آبائهم ليحفظوها بين أيديهم وديعة ينقلونها إلى أبنائهم كما هى ، وإنما يريد ألا ينقل جيل حياته الى الجيل الذى يليه إلا بعد أن يرقيها وينقيها ويصفيها ويضيف اليها من جهده وأمله ، ومن عقله وقلبه ومن يقينه وإيمانه . وهو يريد أن تتلقى الاجيال الناشئة عن الاجيال المولية أعباءها محبة لها مغتبطة بها مزمعة أن تزيد جمالها جمالا وبهجتها بهجة ونقاءها نقاء .

وهكذا تنتقل الحضارة بين الاجيال ، يزيدها تتابع الازمان ازدهارا وازدهاء ، حتى تبرأ من الظلمة مااستطاعت أمور الناس أن تبرأ من الظلمة ، وحتى تأخذ من النور والاشراق أعظم ما تستطيع أمور الناس أن تأخذ من النور والاشراق ، فالشعور بالتبعة إذن هو الذى الهم الكاتب ودفعه إلى الكتابة وحبب النظراء على اختلاف أمكنتهم وأزمنتهم هو الذى أثر فى قلب المؤلف وعقله الى الاشتراك فى إنشاء هذه الفصول . وهو من أجل ذلك يتخذ الشباب موضوعا لهذا الكتاب ، يتحدث عنه ويسوق الحديث اليهم ، ولا يكاد يتحدث الى الشيوخ والذين تقدمت بهم السن ، إلا بمقدار مايذكرهم بتبعاتهم ، ويشعرهم بواجباتهم ، ويدعوهم الى أن يحملوا الامانة حق حملها ويؤدوها كأحسن ما ينبغى لها من الاداء .

والاستاذ واصف البارودى . كما قلت دقيق الحس صادق الشعور نافذ البصيرة بعيد النظر وربما استجزت لنفسى أن أضيف الى ذلك . راجيا ألا أوذيه ولا أسوءه ، أن فى مزاجه شيئا من حدة ، فهو يرفق فى حديثه ما وسعه الرفق ، ولكنه يعجز أحيانا عن أن يتقى العنف ، وخاصة اذا عرض ، وما أكثر مايعرض ، لتصور الاجيال المعاصرة أو تقصيرها .

وللاستاذ واصف البارودى مذاهب طريفة فى تصوير مايريد أن يصوره مما يضيق به صدره ، ومما يتصل به أمله ، فهو مثلا يفرق بين الحياة والمعيشة فالحياة عنده تتصل بالنفس والقلب وبالعقل والذوق قبل كل شيء على حين تتصل المعيشة بهذه الحركات اليومية التى يشترك فيها الانسان مع غيره من الحيوان . فالاكل والشرب والتماس القوت والحرص على مايقوم الجسم معيشة والتفكير والذوق والاستمتاع بالادب والفن والجمال على اختلاف أصنافه حياة . وليس يكفى عنده أن يعيش الناس بل يجب أن يحيوا . والذين يكتفون من دنياهم بالعيش ليسوا عنـــده أحياء وانما هم عنده ما عند الشاعر أموات .

ليس من مات فاستراح بميت انما الميت ميت الاحياء

ثم هو يفرق بعد ذلك أو من أجل ذلك بين الحضارة والمدنية . فالحضارة عنده تتصل بالحياة وهى صنوها والمدنية عنده تتصل بالمعيشة وهى صنوها أيضا . فالذين يكتفون بالمعيشة ترضيهم المدنية التى تقومها المادة وتصرفها . والذين يطمحون الى الحياة تسمو نفوسهم بالطبع الى الحضارة التى تتأثر بالروح والمثل العليا أكثر مما تتأثر بهذه الاعراض الطارئة التى تعرض وتزول والمثل الاعلى عنده اذن هو الحياة وصنوها الذى هو الحضارة ، وهو يكره من الاجيال المعاصرة انها تستغنى بالمعيشة عن الحياة وتجتزىء عن الحضارة

بالمدنية . وهو يعلم أنه لا يستطيع ولا يستطيع غيره استدراك ما فات واصلاح ما فسد من أمر الاجيال التي تقدمت بها السن . ولكنه يحرص أشد الحرص وأقواه على أن يجنب الاجيال المقبلة ما تورطت فيه الاجيال المدبرة ويحرص أشد الحرص وأقواه على أن يكون الشباب خيرا من الشيوخ ، وعلى أن يكون الصبية خيرا من الشباب ، وعلى أن يكون الطفل الذي لم تتح له الحياة بعد خيرا من الصبية الذين ينشأون الآن . وهو من أجل هذا كله يكتب كتابه هذا للشباب وعن الشباب . والشباب عنده ليسوا هذه الاجيال التي نرى نشأتها الآن وانما هي الاجيال المقبلة كلها ففكرته اذن لا تكاد تنقض ولا تكاد تحد ، كما أن تعاقب الاجيال لا يكاد ينقض ولا يكاد يحد . وهو لذلك يفكر في تقويم الشباب المعاصرين وارشادهم ومعونتهم والنصح لهم . ولكنه يفكر في الصبية أكثر مما يفكر في الشباب وفي الاطفال الذين لم يولدوا بعد أكثر مما يفكر في الصبية . وهو لذلك يحاول أن يرسم خططا في التربية التي تنتفع بها الاجيال على تتابع العصور . فافقه كما ترى ليس محدودا بزمان ولا بمكان . كما أن آفاق العلم والفن لا تحد بالزمان ولا بالمكان . وفي هذا الكتاب صورة صادقة للفن والعلم جميعا ؛ لانه كما قلت في أول هذا الحديث وحي من شعور القلب وخلاصة من تفكير العقل . وليس مذهبه في الجهل والجاهلية بأقل طرافة من مذهبه في الحياة والمعيشة وفي الحضارة والمدنية . فالجهل عنده كما هو عند غيره من الناس تضاؤل الحظ من المعرفة ، ولكن الجاهلية عنده كما كانت عند القدماء هي البعد عن الحضارة والاستسلام للغرائز والاهواء وطغيان المادة . فالمعرفة قد تعصم من الجهل ولكنها قليلا ما تعصم من الجاهلية . وما أكثر العلماء والمثقفين الجاهليين في هذه الايام التي تباهي بالمعرفة وازدهار العلوم . أولئك الذين يتبعون أهواءهم ويستجيبون لغرائزهم

ولا يلائمون بين حياتهم وبين ما ينبغى للحياة المتحضرة من استلهام الروح والسمو الى المثل العليا والجهد فى سبيل الكمال النفسى جاهليون ليسوا من الحياة ولا من الحضارة من شىء وانما هم عبيد العيش والمادية .

وليس أقل من هذا كله « طرافة » حديثه عن اليقظة الواعية واليقظة البلهاء ؛ وما أكثر مافى هذا السفر النفيس من طرافة تسر العقل وتمتع القلب وترضى الشعور ، ولعل الصدق والحب والاخلاص وسداد الرأى هى أخص ما يمتاز به هذا السفر القيم الممتع من الخصال . وكم كنت أود أن تبرأ طبعته الاولى من بعض الخطأ المطبعى الذى يشينه شيئا ما . وأكبر الظن أن طبع الكتاب فى مصر ومؤلفه مستقر فى وطنه لبنان هو مصدر هذا الخطأ القليل الضئيل .

أما بعد فهذا كتاب الشباب اليهم يتحدث ، وعنهم يتحدث ، فما أجدر الشباب أن يقرأوه ويفهموه ويتذوقوه ، وما أجدر وزارات المعارف فى البلاد العربية أن تمكن الشباب من قراءته وفهمه وذوقه .

باريس سبتمبر سنة ١٩٤٩ طه حسين

obeikandl.com

مقدمة

في صميم النفس وفي سريرة الحياة كلمات ، أود لو تصل الى الشباب النامي في بلاد العرب . ولعل في هـــذه المحاولة تمهيدا للتعبير عنها تعبيرا واقعيا صادقا .

قلت انها محاولة ، وما أردت منها سوى تنبيه الشباب لنفسه ولواقعه ، ليكون هو المعبر عن واقع الحياة ، وعن حقيقتها ، بابراز نفسه على سجيتها ، وإطلاق روحه من سجن المادة الطاغية ، دون أن يخل بالناموس .

انه الشباب ، وهو الأمل ! وانها الحياة ، والحياة تدفعنا بحوادثها القاسية ليقظة ، يجب أن تكون واعية . ولا تكون واعية إلا بوعي الشباب .

قد أكون مصيبا فيما ذهبت اليه في هذه الرسالة ، وقد أكون مخطئا . وليست الأهمية في مظاهر الخطأ والصواب ، بل فيما يجب أن تثيره قضية الشباب من دروس وابحاث ، نستمد مناهجها من واقع شبابنا ، ومن واقع مجتمعه ، وواقع البلاد التي يعيش فيها ، وتقتبس موادها مما يحتاجه الشباب في حياته ، فردية واجتماعية ، على ضوء العلم الصحيح ، وتطور المجتمع في التاريخ ، متجهين لما تهدف اليه الشعوب العربية من أمان وآمال ومثل .

إننا نريد لأوطاننا شبابا واعيا يعرف كيف يتحمل التبعة في تربية نفسه وفي توجيهها ، ليصبح في رجولته قويا يعرف كيف يحافظ على كيانه واستقلال بلاده .

مضى علينا زمن ، تطاول عهده ، ونحن نعيش فى الماضى البعيد ، ونعمل للحاضر الموقت ، وقد آن لنا أن نحيا المستقبل وفى المستقبل . الكوارث تتوالى ، أفلا تدفعنا للعمل بجد وتضحية وحكمة ؟ ...

يجب أن نقرر اجتناب طريقة البكاء والشكوى والاستسلام ، وأن نتحرر من عادة إلقاء عبء التبعة على أكتاف غيرنا ، بعد اليوم ، فلا يلتفت أحد لبكائنا ولندبنا المبادىء السامية يستباح حرمها . لنتخذ الحق للقوة مبدأ ، والعمل على إدراك خطيئاتنا منزعا ، ولنتدارك الحوادث ، قبل وقوعها بالقوة والحكمة ، لا بالخطب والأقوال ، فالأقوال والخطب لا تحل مشاكل الحياة .

فاذا اتجهت هذه المحاولة الى الشباب ، وهو الدم الذى تتجدد به حياة الأمم وتقوى ، فللعمل على تحقيق هذه الأهداف . وما هى إلا نفثة مصدور ، قد تتبعها نفثات ، نرجو أن تتحقق بها مباهج وبسمات .!!

واصف البارودى

الفصل الأول

أزمة الحياة و أزمة المعيشة

الشرق و الغرب

المنارة و المدينة

obeikandl.com

obeikandl.com

١ — أزمة الحياة !

لا أظن أن فى هذا العالم المضطرب ، واحدا لا يشعر بالأزمة الخانقة ، أزمة الحياة . ولا يذهبن الظن بأحد من القراء الى أنى أقصد أزمة الغذاء أو الكساء أو المسكن ، فان هذه ، فى نظرى ، هى أزمة المعيشة ، وشتان بين الأزمتين ، على ما بينهما من تلازم واتصال ! ...

أعجبت ولا أزال أعجب بجواب أتلقاه ، ويتلقاه الكثيرون ، من بعض الواعين وعيا فطريا عندما تسأل أحدهم عن حاله ، فيجيبك بلهجة الساخر المتألم : « عايشين ، والحمد لله ! » يجيبك بذلك والابتسامة الصفراء الهازئة الحزينة مرتسمة على شفتيه ووجهه . وكأنى بنظراته الحائرة ، وهو يثبتها فى وجه السائل ، عندما يتخذ هذا الوضع الخاطف ، تتفحص عن تأثير هذا الجواب فى نفسه ، وتتساءل عما إذا كان قد أدرك ما يرمى اليه الجواب من معان يعبر عنها لسان الحال ، ان لم يفشها لسان المقال .

« عايشين ، والحمد لله ! » تعبير عامى المظهر واللهجة ، ولكنه فى أوج البلاغة فى الدلالة على أشد ما فى النفس من ألم ، وما فى الشكوى من مرارة فكأنى بهذا المجيب يقول : بئست حالة هى هذه التى لا نفكر فيها إلا بأسباب العيش من مأكل ومشرب وكساء ومأوى ، وبما قد يستتبع ذلك عند الأغنياء من مظاهر الزهو المادى ووسائل الترف ! وما دامت هذه هى البواعث التى تثير الهمم والعزائم فنحن عائشون ، ولسنا بأحياء ! ...

نعم ، ان هذا المجيب الساخر يرى فى الاكتفاء بالسعى للعيش ، شظفا أو ترفا ، موتا للحياة الانسانية فى المجتمع . ولا يهمه ، طبعا أن يكون الاتجاه نحو العيش ومستلزماته سببا لموت الحياة فى إنسانية الانسان ، أو أن

يكون سببا عنه . فهو يتألم لنتيجة ظاهره ولواقع يراه كل يوم ، إذ يبحث عن الصفاء فى الصلات ، والتساند فى الأعمال ، والصبر على المكاره فى الجهاد ، والتضحية فى سبيل مستقبل يتأ فيه الأبناء والأحفاد ، وعن الاخلاص فى التفكير والشعور والارشاد ، فلا يجد لذلك ، ولا لغيره من مقومات الحياة الانسانية أى أثر ، وانما يعثر بالدجل والتدجيل ، وبالزمن والتطبيل ، والسباق فى خداع الغير ، واستخدام كلمات المثل العليا والقيم الروحية السامية فى المصالح الفردية ، وفى سبيل الحصول على المال أو الجاه ، أو الشهرة أو الترف . فلسان حاله يقول :

كل من فى الوجود يطلب صيدا غـــير أن الشباك مختلفات

فيحمد الله على أنه يجد ما يأكل وما يلبس وما يأوى إليه ، ويقول : « عايشين ، والحمد لله » .

انها كلمة فيها ، على بساطتها ، كل الحقيقة ، فنحن عائشون ، لا نعمل لغير المعيشة وما يتعلق بها من لذات مادية ووهمية ، لها نكدح واليها نسعى وندعى مع ذلك أننا أحياء ؟ ...

كلا ، لا تتحقق الحيـــاة فى الانسان الا بتحقق ما تقوم به إنسانية الانسان . فاذا قلنا عن الوحش المفترس أنه حى كلما افترس ، فلان حقيقة حياته إنما تثبت بذلك ، أما الانسان فحقيقته تثبت بتحقق معانى الانسانية فيه ، ولذلك لا يقال انه حى ، إلا إذا كان مظهرا لتلك المعانى السامية ، يعمل للحق ويتذوق الجمال ، ويرتاح للخير ، وإليه يطمئن . والا فهو كائن يعمل ليعيش ، ولا أثر للحياة الانسانية فى نفسه ، وان كان يظهر بصورة الانسان وكأنى بالشاعر إنما أراد هذا عندما قال :

ليس من مات فاستراح بميت انما الميت ميت الأحياء

وأموات الأحياء هم العائشون ، حسب تعبير ذلك الواعى بفطرته .

قد كثر بيننا عدد من يعيش ، دون أن يتمتع بالحياة ، وقد أصبحنا نخشى ، إذا لم يتدارك الوعى الصحيح المثقف أمرنا ، أن تعم بيننا هذه الحالة الهدامة ، فنخسر حقنا فى تكوين أى وجود اجتماعى مجيد . بدأنا نشعر ، ونحن نعمل لنعيش ، أننا نخسر وجودنا قطعة قطعة ، ولا يبعث فى نفوسنا شيئا ، من التفاؤل والأمل ، سوى انتباهنا وما نرجو أن ينتج عنه من التعلق بما بقى ، على الاقل ! ... يتراءى لنا أننا قد انتبهنا ؛ ولكن ، أهو انتباه صحيح تنبثق معه فى نفوسنا مقومات الحياة ، أم هو انتباه ذاهل ، نخشى أن يعود بنا للغيبوبة بفعل مورفين المعيشة ولوازمها ، من لذات وترف ، فنستمر على الخسران ، وعلى النحيب والبكاء ، قانعين بتفسير الحوادث وشرحها ؟ ...

انى لا أخشى الاجنبى على كياننا ، وانما أخشى من نفسى على كيانى . واعتقادى أنه ليس هناك قوة تستطيع سلب الحياة من أمة تحرص عليها ، وهى عاملة ضمن نطاق النواميس ، فدود الخل ، كما يقول المثل السائر ، منه وفيه .

كدت أغالى فى التشاؤم ! ... فمالى لا أذكر أن هذه الحالة أصبحت عامة فى الكون ، وأن الناس فى أعظم البلاد وأرقى الأمم تعمل اليوم للمعيشة والترف ؛ وأنهم فى جميع العالم يشكون أزمة الحياة فى إنسانية الانسان ؟ !... وعموم البلوى يخفف من وطأتها ، حسب رأى الكثيرين من الناس .

ما ألطف هذا المخدر ، وما أشد خطوره ! .. نقول : فسدت الاخلاق ، فتجاب : هذه هي حالة العالم اليوم ، وإذا شكونا التزييف والتدجيل الى نجيب أو أريب ، خبر العالم وطاف في أرجائه ، قال لك ، والسخرية تتدفق من أشداقه : كيف بك لو رأيت ما عند الغربيين من هذه البضاعة ! ... ثم يهز رأسه هزة الحصيف الحكيم ، وتلمع في عينيه معاني الهزء والاستجهال ، ولا يتورع من أن يقول : هذه هي حالة العصر ، كل يعمل لنفسه ، ويغتنم فرص الحياة ليتمتع بها ، ولا قوة الا للمال ، ولك أن تعمل ما تشاء للحصول عليه ، فتمتلك الحياة . ان الاخلاق الفاضلة ، والمبادىء السامية ، والمثل العليا من الازياء القديمة البالية ، ونحن يجب أن نتجدد وأن نسير مع الركب ، وأن نترك ما كان عليه آباؤنا وأجدادنا ، من بساطة في التفكير وسذاجة في الشعور ، فالقول بالرحمة والوفاء والصفاء ... وما الى هنالك ، سذاجة ، وفيها كثير من إضاعة الوقت ، وهنا يردعك مستعجلا ، ويبرهن عن براعته في تزويق القول وسعة الاطلاع بكلمة أخيرة ، يحرك معها رأسه ويده مؤكدا لك أن الزمن زمن سيارات وصواريخ ، والعالم يسير بسرعة ، فيجب أن نسير معه بسرعته .

وهكذا يمثل أفجع فصل من رواية أزمة الحياة ! ... فكأنه قد كتب علينا أن نظل في ركاب الآخرين ، ولو برزت في حياتهم إمارات التقهقر والانحطاط ! ...

الشرق والغرب

منذ كان الشرق شرقا ، ومنذ كان الغرب غربا ، وهما على خلاف في حق السيطرة على العالم . فكلاهما يدعي هذا الحق ، وكلاهما يعمل على تحقيقه . فكان طبيعيا أن يعمل كل منهما على دمج الآخر في كيانه ، عاملا على

استعماره وعلى استعباده وابتزاز ثروته . وكان سير الحضارة يشجع هذا الوضع ، إذ كانت تنتقل بينهما دواليك ، فلا تصبح شرقية حتى تمسى غربية وهكذا . ومتى استقرت فى جهة ، استغل رجالها ما فى الحضارة من قوى مادية ومعنوية لتحقيق أهدافهم فى السيطرة والاستعمار . ولذلك قال كبلينغ : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا .

وقد استيقظ الشرق فى العصر الحاضر ، بعد نوم عميق طويل ، فاذا بالحضارة زاهية فى الغرب ، ومستقرة فيه . فأخذ يكافح لاستبقاء ما بقى له ، إن لم يكن قادرا على استرجاع ما ضيع وهو نائم غافل . . . فاذا بالغرب شديد المراس ، يأخذ ولا يعطى ، يمنع ولا يسمح ، يعتمد على قوى جبارة يغذيها العلم ويوجهها الطمع ؛ وهو يرى فى الشرق وقاحة ان طالب بحق ، أو دافع عن نفسه ليقيها أية مضره . وشعاره : الحق للقوة ، وللضعيف الرسن .

بدأ الشرق معركته بسلاح الاقوال والخطب ، والمقالات والكتب ، مهاجما الغرب فى شعاره ، داعيا الى العدل والرحمة ، والى إبطال هذه القاعدة : الحق للقوة وللضعيف الرسن . وأخذ فى درس الثقافة الغربية ، لا ليرسم الخطط التى تقتضيها النهضة ومقاومة الاعتداء ، بل ليقتبس أقوالا لبعض الغربيين من الفلاسفة والحكماء ، يتخذها حجة فى ضرورة هدم هذا المبدأ . وقد أدهشه هذه الغرب بطريقة كفاحه ، واتخذها وسيلة سلبية للتمادى فى الاعتداء ، ما دامت الفرصة سانحة ، والشرق بعد يقظته تخدره هذه الاقوال الناعمة المغرية ، معتقدا أن تنميق الاقوال وتزويقها يحلان مشاكل الحياة . ومشاكل الحياة لا تحل الا بالاعمال المستنيرة بالقواعد العلمية الصحيحة ، والخبرة العملية الواضحة . أو بتعبير آخر ، لا تحل إلا بالقوة : معنوية أو مادية . ولدينا أمثلة واقعية كان الشرق مسرحا لها فى عصرنا الاخير ؛ نكتفى بذكر حركة

مصطفى كمال فى تركيا ، تدليلا على تأثير القوة المادية فى تحرير الشعوب ، وحركة غاندى فى الهند ، للبرهان على تأثير القوى المعنوية ، التى تتجلى فى تكاتف الشعوب وتضامنهم حول فكرة واحدة صحيحة وبقيادة صالحة واحدة . فى فرض أى شعب احترامه على الامم ، مهما ضعف شأن القوة المادية لديه . فالمهم فى تحرير الشعوب إرادة قوية حازمة واتجاه صادق نحو فكرة صحيحة ، والقوة عندئذ تأتى منقادة ، وتسعف مختارة .

ما جم الشرق مبدأ « الحق للقوة وللضعيف الرسن » ، وكأنى به توهم أن هذا المبدأ غربى النشأة ، عارض على الحضارة الانسانية ، والحقيقة أنه مبدأ الحياة وناموس الحضارة منذ الازل . فالحضارة والحياة ، فى مظاهرهما الانسانية ، تكرهان الضعف وتحتقران الضعفاء ، وخاصة اذا كان هذا الضعف نتيجة للتفكك والتخاذل فى الامم . فلا حياة لامة لا تتجلى قوتها فى اتحاد المواطنين فيها ، ولا حق لوطن يشغل أبناؤه بعضهم ببعض ، للدس والنكاية أو الحقد والانتقام . وهذه كلها هى من مظاهر أزمة الحياة فى الأمم .

عين حاكم جديد فى منطقة من المناطق ، فابتهج أناس لخلاصهم من الحاكم السابق ، وحزن آخرون . وكان من مظاهر الابتهاج عند أحد المجندين الفرحين أن دعا زوجته لتلحق به الى السطح ومعها صفيحة البترول ومنقل الرماد ، ليشعلها زينة تنير جميع الانحاء . أبطأت عليه الزوجة ، وهو مأخوذ بحماسه الشديد ، فما كان منه الا أن خلع ثيابه وأخذ يشعلها ، والزغاريد والهتافات تخرج من فمه بقوة وارتفاع . لاحظ ذلك الخاس أحدهم فلم يتمالك عن أن يسأله عن الأضرار التى لحقته من الحاكم السابق ، فاذا به لا يعرف شخصه ، ولم تكن له به أدنى علاقة . قال : فلعل هناك قرابة أو صداقة

تربطك بالجديد ؟ فاذا الجديد أبعد عنه من القديم ... إذن ، فما سبب هذا هذا الحماس المتقد ؟ فابتسم المتحمس الأبله وقال : نكاية بجارى ! ...

فبهذه الأخلاق وبأمثالها ، عندما استقرت فى الشرق ، تحكم الغرب فيه ، وبها وبأمثالها تحققت أزمة الحياة فى أرجائه .

وبهذه الأخلاق وبأمثالها فى الغرب ، سبق وتحكم الشرق فيه ، وبها وبأمثالها برزت أزمة الحياة فى أنحائه .

وبهذه الأخلاق وأمثالها يخشى على الحضارة من الانهيار اليوم ، وبها وبأمثالها تبرز أزمة الحياة فى العالم .

أنانية هوجاء تقضى على ما فى إنسانية الانسان من حقائق ومبادىء وسمو ، فتستحكم الأزمة ، ويفقد الانسان طمأنينة الحياة وراحة الضمير ، ويصبح يعمل للعيشة وما يلازمها من ترف فى الزهو وفى الاستمتاع ، فيحمد الله على العيش ويأسف على الحياة ، ويقول : « عايشين » والحمد لله » .

عمت أزمة الحياة اليوم الشرق والغرب معا ، والقنبلة الذرية للافناء بالمرصاد . فهى اليوم كالطوفان الذى هدد به نوح قومه ، ولولا بقية من مبادىء إنسانية تجعل أصحاب الأمر يحسبون للمستقبل حسابه لوقعت الواقعة وانحل كيان الحضارة ، وعاد الانسان الى همجيته الأولى أو أشد منها ، الى أن تجد الحياة لنفسها مخرجا من هذه الازمة الفتاكة ، أو يرتاح العالم منها ! ... ومن يدرى ؟

٢ — الحضارة والمدنية

فازمة الحياة هي أزمة الحضارة ، وأزمة المعيشة هي ازمة المدنية ؛ واسمح لنفسي ان أميزهنا بين المدنية والحضارة ، من الوجهة الانسانية ، كما ميزت مثيلها ، من هذه الوجهة ايضا ، بين المعيشة والحياة .

فالمدنية في نظري هي سكنى الانسان في المدن ، مع تفننه في العمران ، وسعيه لاستكمال اسباب معيشته ورفاهيته فيها .

أما الحضارة فهي الصفات والسجايا التي تمنح المجتمع كيانه والانساني الصحيح، في جميع مظاهر الفكر والشعور والتذوق للجمال . فيكون المجتمع بذلك ميدانا فسيحا لتحقق اسمى ما في الحق والخير والجمال من مبادىء وصور ومثاهد .

والمدنية عنصر اساسي في استكمال الحضارة الانسانية مظاهرها السامية وكيانها الراقي الكامل ، لما بين المعيشة والحياة الانسانية من تلازم . فاستكمال الانسان المتمدين لاسباب معيشته ورفاهيته يفسح للحياة مجال الانفتاح والانطلاق في عوالم الحق والخير والجمال ، فتتحقق الحضارة في المجتمع ، بتحقق الحياة الانسانية في افراده .

فالمدنية اذن وسيلة للحضارة . والخطر ينتاب الحضارة والحياة ، كلما اتخذ الانسان مدنيته غاية بذاتها فيظهر البؤس في الحاجة والبؤس في الترف ، إذ البؤس ، على ما أعتقد ، انما هو يأس من الحياة ومن مثلها واقيم الروح فيها . فان كان سبب اليأس شدة الحاجة ، فهذا هو بؤس الحاجة ، وإذا كان السبب الترف ، أي تعلق الكلب بالرفاهية وزهوها والمعيشة ولذاتها بحيث

لا يهتز ولا يخفق الا لها ، فهو بؤس الترف . وللبؤسين ، كليهما ، نتائج متشابهة : الضجر والملل ومحاولة التخلص منهما بامور تافهة تزيد الطين بلة ، كالاسترخاء والتقاعس والاستهتار والسعي وراء الفساد والافساد : القمار والسكر وما يلازمهما من رزائل ، يتساوى فيها بائس الحاجة والبائس المترف ، على ما بين الاثنين من فرق من حيث القدرة والاستطاعة .

ومتى اشتدت وطأة البؤس ، على نوعيه ، فى أمة ظهرت اعراض لانحطاط ويخشى عليها من الانهيار والفناء . وعلى هذين النوعين من البؤس تعتمد الامم القوية فى استعباد الشعوب الضعيفة ، ولا تضعف الامم الا بذلك . إذ يصبح مبدأ الغاية تبرر الواسطة مسيطرا على النفوس ، ومشوها فى تفهم بعض الحقائق السامية فيه ، فلا يجد البؤساء ، والمسترفون خاصة ، أية ممانعة ، فى نفوسهم المتهدمة المنحطة ، لخيانة امتهم والغدر بالمواطنين ، ما دام ذلك يؤدى إلى الحصول على المال أو الحياة الذى يشبع الشهوات عند المترف ، ويسد الحاجة عند المعدم . وقد صدق من قال : « هذه المدنية مفسدة للانسانية » أى هذه المدنية ، على الشكل الذى فهمناها به ، حين تصبح غاية الانسان ، فى حياته ومجتمعه ، فيصير كائنا عائشا ، لا انسانا حيا فيردد قول القائلين : عايشين والحمد لله ! . . . مستسلما ، لا متمردا ! ولا ساخرا ! . . .

فالويل لأمة تغريها مظاهر المدنية ، ويخدعها سرابها ، فتقف عندها ، دون أى طموح فى بلوغ مسرات الحياة الصحيحة السامية فى حضارة تمنح النفس الانسانية سموا قدسيا فى معرفة الحق وحب الحقيقة ، ومجدا سرمديا فى عمل الخير والدعوة اليه ، وروعة علوية تذوق الجمال والاطمئنان لروائعه .

والحضارة ، إذا أدركت حقيقتها وعرفت كيف تسير فى أرجائها ؛ لاتحرمك من مباهج المدنية ولذاتها . وانما هى تنظمها بحيث تجعل مباهجها أشد أثرا فى نفسك ، ولذائذها أكثر اتصالا بروحك . هى ترفعك إلى الملأ لتعيش إنسانا ، يتمتع حقيقة بمسرات الحياة ومباهجها ، عن وعى وادراك ، والمدنية المزيفة ، أى التى تكون غاية فى ذاتها ، تجذبك الى الاسفل لتعيش حيوانا ، يتوهم أنه يتمتع ، والهم والقلق يتآكل نفسه . هذا عدا ما فى عدم تنظيم المسرات وســوء اختيارها من تعرض لأوبئة وأمراض تنتاب النفس والجسد .

ان القلق هو أبرز حالة تستولى على الانسان فى أزمات الحياة ، فى الحضارات ؛ وما ذلك الا لما فى انسانية الانسان من ميل داخلى الى التكامل فى النمو والتقدم . فهو يرتاح ما دام السير مستمرا ؛ فاذا عرض ما أوقف هذا السير ، أو أخره بدت أعراض القلق ، ووجدت جرائيم الهموم الى قلبه سبيلها ، فتراه شقيا يائسا ، على الرغم من استكمال أسباب المعيشة ، لانه بفطرته يريد الحياة ، الحياة الانسانية ، مبعث المباهج والمسرات . فهو لا يرتاح لغيرها فى الحقيقة ، اذ لاجلها خلق وبالوصول اليها أمر .

فالحضارة هى الهدف الاسمى لانها الجو الملائم الذى تستطيع فيها الروح البشرية الانطلاق ، والحياة الانسانية التحليق والجولان . فان نحن منها اليوم ، ونحن ، كما سبق والمعنا ، فى أزمة الحياة ، ومتى قلنا أزمة الحياة قلنا أزمة الحضارة ، أى أزمة إنسانية الانسان .

٣ — نعود إلى الشرق والغرب

فالحضارة الانسانية أنى كان استقرارها ، شرقا أم غربا ، تتطلب دائما الاستزادة فى التقدم والرقى ، ومن نعم الله الكريم أنه لم يشأ أن يكون للتقدم والرقى حدا معينا ، لتظل للحياة الانسانية معناها الاسمى ، ولتبقى البواعث على الاستزادة من خيرات الحياة ومباهجها ومسراتها مستمرة ما دام للحياة وجود . فبتقدم الحضارة ورقيها تتنوع أسباب المسرات ، والمسرات النفسية خاصة ، وتتجدد ؛ ومهما كان آثار للهموم والاحزان ، فالحضارة الصحيحة تساعد الانسان ، لا على تحملها وحسب ، بل على التلذذ بها ، إذ يتخذها وسيلة للتوسع والتعمق فيما أدرك من أسرار الحياة ، فتصهر نفسه بنارها لتصفيتها من الاجرام الغريبة عنها ، ويكتسب قوة نفسية جديدة يزداد بها سموا وحزما واقداما . وذلك خلافا لأحوال الأمم فى انحطاطها وفقد آثار الحضارة فى نفوس أبنائها ، أى فى أزمة الحياة فيها ، فان الهموم والاحزان تلاشيها ، وتهدم نفوس الافراد فيها .

فلا غرابة اذن إذا شعرت الانسانية فى صميم وجدانها بضرورة الاستزادة فى تقدم الحضارة التى تنعم بها ، ولا غرابة اذا استولى القلق على نفوس الناس فى العالم لأن عثرات تقف فى سبيل استمرارها . وأصبحنا نشعر أننا نعود القهقرى مخدوعين بمظاهر المدنية ، اذ نحاول أن نجد عندها المسام ، ولن نجد سوى السراب الخادع . بدأنا نشعر بأن الأمن والسلام العالمى ضروريان لاستقرار الحضارة واستمرارها على التقدم واشباع النفوس بخيراتها ومسراتها . ولكن كيف يتحقق الأمن والسلام ما دام الشرق شرقا والغرب غربا ؟ وما داما ، على رأى كيبلينغ ، لا يلتقيان ؟...

او بتعبير آخر ، ما دام هناك قوى يعتد بقوته ويهدد بها ، وقد يستخدمها دون رحمة ولا شفقة لتنفيذ مآربه ، وهى مآرب لا تتجاوز حد اشباع نهم مظاهر المدنية ، فيكون بذلك سببا فى تحكم الأزمتين : أزمة الحياة فى الفرد وأزمة الحضارة فى العالم ! . . .

وما دام هناك ضعيف يتلهى بمقاومة أقوى ما فى الحياة من أسرار ونواميس خوفا من بذل الجهد وفزعا من التضحية ، وايثارا للعيشة مع الذل على الحياة السرمدية بإباء وكرامة ! ضعيف يخشى أن يكون قويا لئلا يفقد شيئا من ملذات العيش الوقت ، انه يستعطف الاقوياء ليكفوا عن مبدأ استهزام الحق للقوة ، وهو بذلك يغرى الاقوياء باستعباده واستثمار مجهوده ، فحالة الضعيف فرصة سانحة ، وأضعف منه من لا يقتنص أمثال هذه الفرص . فوالله ان ضعف الضعيف هو أشد خطر على السلم والحضارة والحياة من قوة الاقوياء ! . . .

« الحق للقوة » ، لا تعنى مطلقا أن ما يفعله القـــوى هو حق دائما . فالقوى يظلم فلا يكون على حق ، ويخطىء فلا يكون على حق ، واذا تكرر ظلمه وخطأه فقد قوته وبلى بمن ينتقم منه . والتاريخ شاهد صادق على ذلك « الحق للقوة » ، تعنى أن الحق قوى بذاته ، ويأبى لقوته أن يكون بجانب الضعفاء . كن قويا تجد الحق معك . ومن رحمة الله أن جعل القوة فى دائرة الامكان ، وان جعل منشأها النفس الانسانية . القوى المادية لا فعل لها اذا كانت النفوس ضعيفة . والنفوس القوية اذا تكاتفت وتعاونت باخلاص خلقت القوة المادية خلقا فاذا فقد السلم فى العالم فالذنب ذنب الضعفاء أكثر من الأقوياء ، لأن الضعف يطمع .

لم يرو التاريخ خبرا يؤيد استعباد أية أمة ، مهما بلغت قوتها وعظم شأنها ، لأمة اعتصم أفرادها بالمبادىء الانسانية السامية . وتضامنوا اباة يأنفون الذل ، مهما صغر شـــأنها وقل عددها . واذا وقع انتصار حربي مصدره القوة المادية ، فالى حين يحكم المنتصر فيها ، ولكنه لا يستطيع استعبادها ولا الاستقرار فيها . الأمة الأبية تفنى ولا تستعبد . ومتى فضلت الفناء على قبول الاستعباد منحت لها الحياة ، حياة العزة والمجد . ان فردا يأبى الخضوع تعجز القوى عن إخضاعه فما بالك بالأمم إذا تضامن أفرادها ونذروا أنفسهم للموت ؟ . . .

ان السلم العالمي حق من حقوق انسانية الانسان ، لتستمر صاعدة الى العلاء متسامية فى الأجواء تتمتع بنعم الحياة ورفاهية الحضارة ، انه حق لها فلتنله بقوتها . فلا سلام فى العالم ، ما دام فيه ضعف فى بعض الجماعات والأمم ، والضعف الذى أخشاه على السلم هو ضعف النفوس أكثر من ضعف السلاح . فالتفكك فى الأمم والتخاذل بين أفرادها هو المغرى الذى يحتازه الأقوياء لقهر الضعيف واستعباده . وضعف النفس فى الفرد هو السبيل القويم لاتخاذه سخريا . فلنقم بتربية انسانية صحيحة ترفع من نفوس البشر ، نتقرب الى السلم خطوات تتناسب مع نجاح وسائل تلك التربية ؛ وهذا ما يجب على من يعملون لأجل السلم ان كانوا مخلصين .

فلن يستقر سلم صحيح فى العالم ، ولن تستمر الحضارة فى التقدم ، اذا ظل الغرب قويا والشرق ضعيفا . فما بالك اذا استمر الغرب على مظالمه ، وانهارت قواه ، لأن الظلم يهيء القوى ويهدمها ، وأصبح الكون للضعفاء ، يتشاحنون مشاحنة الضعفاء ، ويتقاتلون مقاتلة البائسين القانطين ، فان العالم يصبح ، عندئذ ، والهمجية أطيب لنفسه من مدنيات زائفة وحضارات

كاذبة جامدة ، لا روح فيها . فلا معيشة ولا حياة ، لأن الانسان لا يفنى بفناء نوعه ، وانما هو يفنى فى انطفاء شعلة الروح الانسانية فى نفسه .

فليحذر الغرب تماديه فى غرور قوته ، وليحذر الشرق استسلامه لمخدرات ضعفه ! ... وليعلم الشرق عامة ، والشرق العربى خاصة ، أن تحقيق السلم العالمى متوقف على وثبته واستكمال قوته ، وأن الحضارة الانسانية ، وهى لا تزال تتفضل بالروح التى نفثها فيها منذ القدم ، تنتظر منه العزم والهمة والاقدام !...

٤ — رسالة الشرق العربى فى العالم

ان الشرق العربى فى أجدر المناطق الجغرافية موقعا لتأدية الرسالات العالمية . فهو فى مركز وسط بين أقصى الشرق والغرب ، فكأنى به شرق وغرب فى آن واحد ، ولذلك كان دائما ميدانا فسيحا تتفاعل فيه الحضارات وتتلاقح ، ليخرج للعالم حدودا مشتركة فى منازع التفكير وبواعث السلوك وتذوق الحياة . وتأثير دياناته وأرباب الفكر فيه فى جميع أنحاء العالم ، شرقا وغربا ، برهان واقعى ساطع على صحة ما نذهب اليه من أهمية نتائج هذا التفاعل فى تكوين الفكرات الانسانية الكبرى التى يستطيع الجميع ، فى الشرق والغرب ، إدراكها وتحسسها ؛ وهى هى الفكرات التى تخفق لها قلوب البشر ، على اختلاف منازعهم وأهوائهم وطرق حياتهم فى المناطق المتباعدة .

لذلك كانت الرسالات الصادرة عن هذا الشرق . انسانية عامة ، وقد استطاعت بمبادئها الكبرى ، أن تغزو جميع البلاد ، لا لتكون وسائل للاستثمار أو التلهى أو التعزية أو . . . ، بل لتتغلغل فى تلافيف الأدمغة ولتستقر فى أعماق الأفئدة ، فتصبح فى صميم بواعث التفكير والعمل والسلوك .

وما كان لرسالات هذا الشرق العربي تأثيرها الفعال في نفوس الناس ، على اختلاف مناطقهم ومنازعهم واختلاف التنوع في معيشتهم ومبادىء سلوكهم وبواعث تفكيرهم ، لولا انها تتضمن في صميمها عناصر قوية من عناصر الحضارة الانسانية المثلى ، تلك العناصر التي تسمو بها الحياة ، اذ تتحقق ذاتيتها فتنطلق وتجول في اجواء الحق والخير والجمال ؛ وفي هذه الأجواء نعيمها ، واليها تتشوق في أحوال الكبت والضغط والجمود ، حين يعبر عن ذلك الشوق الفؤادي ضنك الانسان ورعونته وجموده وضجره .

لا ترتاح النفس البشرية ولا تطمئن الا إذا تحققت فيها مبادىء الحياة الانسانية في حضارتها . ومهما اختلفت صبغة الحضارة فانها تعتمد في صميم حقيقتها على عناصر اولية واحدة تبرز في مظاهر الحق والخير والجمال . وماتنوع الحضارات سوى صبغ يلونها بها تنوع مظاهر الحياة . وإذا تراءى لنا وجود فوارق اعمق من الاصطباغ ، فان ذلك يعود لاتجاهها لا للعناصر الأصلية فيها : فاما أن تتجه سماء ، واما أن تتجه ارضا .

لذلك ، مهما تعددت الحضارات وتنوعت ، من قديمة وحديثة ، وهندية او فارسية أو صينية أو عربية ، لاتينية أو انكلوساكسونية او سلافية أو جرمانية ... أو غير ذلك ، فانها تعود كلها لحضارتين أساسيتين كبيرتين : الحضارة الشرقية والحضارة الغربية . والفرق بينهما يعود لتغلب الاتجاه ؛ ففي الحضارة الشرقية يغلب الاتجاه إلى السماء ، ولذلك يقال انها روحانية ، وفي الحضارة الغربية يغلب الاتجاه نحو الأرض ، فقيل انها مادية . والحقيقة أن كلا منهما يتجه إلى السماء والأرض معا ، ولكن الفرق الحقيقي هو في تغلب احدى الجهتين في انجذاب التوجه . فمن الخطأ ان نقول ان ليس في الحضارة الغربية أية روحانية ، كما أنه من الغلو ان ندعي ان ليس في الحضارة

الشرقيه مادية . والمهم فى الحضارة الانسانية المثلى ان يتم توازن الاتجاه فى الحضارتين نحو السماء والأرض ، دون افراط ولا تفريط .

افرط الشرق فى الروحانيات حتى اصبحت فى كثير من مظاهرها رياء ودجلا وشعوذة ، افسدت العقائد ، فهدمت المبادىء وانهارت المثل العليا وتعطلت القيادة ، بعد ان اصبحت طقوسا شكلية ، لاصلة بينها وبين القلوب ، وهكذا اصبحت مظاهر الحضارة فيه متداعية الاركان ، واهية الاسس ، فخسر أمجادا اكتسبها فى عهود لم يكن للافراط فيها الى نفسه سبيل .

وفرط الغرب فى الروحانيات حتى انقلبت مادية والحادا ، واصبح الغرب معها خطرا على الحضارة وعلى الحياة الانسانية فيها . ومما يزيد فى خطره ، حالة الشرق فى افراطه . فلن يستطيع الشرق التفصل من التبعة ، لأن ضعف الضعيف ، على ماسبق وقررنا ، اشد خطرا على الحضارة من قوة الاقوياء .

اما المادة أو الارض فعلى النقيض ، فقد افرط فى الاتجاه اليها الغرب وفرط الشرق ، فنشأ عن ذلك مغالاة الأول فى قوته ، وخوف الثانى من الكفاح والمقاومة ، فاستعبد القوى الضعيف ردحا من الزمن ، كانت كافية ، وقد تصادم الأقوياء ، واشتدت أزمة الحياة بعد ان عمت الكون ، غربا وشرقا ، واصبحت المعيشة هدفا ، وقد كثر من لايحصل عليها ، فازداد البؤس ، وارتبك العالم ، فانتبه الضعيف ، بل استيقظ ، وبدأت تباشير وعيه ، وأخذ يحاول استعادة قواه ، وتجميع مافرقته يد الازمان القاسية من حسنات امره ومقومات حياته ، فازداد ضغط الازمة ، وعم الارتباك .

فتأوه ضمير الكون على مدنية تهدد بالانهيار ، بعد ان كادت الحضارة تتلاشى ، ولا يحفظ المدنيـــة قوة سوى قوة الحضارة فى معناها الصحيح .

والنذير المباشر هو هذه القنبلة الذرية ، وما تمت اليها بصلة من أسلحة فتاكة ، ووسائل مدمرة ، يزيد فى قوة انذارها ما تكاد تفقده النفوس من الوازع الانسانى ، ولو خوف الناس بعضهم بعضا لوقعت الواقعة ، ومن يدرى متى تقع ؟ أقريب موعدها أم بعيد ؟ . . . . ام انه هناك عوامل ستعمل على تركيز الحضارة وافساح المجال واسعا لوثبتها المنتظرة ، فتحرر النفوس من اطماعها واحقادها وتضمن للعالم عدلا ، فطمأنينة وسلاما ؟ . . .

لنستمع قليلا الى عالم غربى معاصر ، هو السير رتشارد لفنجستون ، فى بحث له عن التربية الديموقراطية متحضره[1] ، حيث يقول :

« نعيش اليوم فى عصر يموج بأعظم التغيرات الاجتماعية التى حدثت فى عصور التاريخ . هذه هى الحقيقة المجردة ، سواء لاحظناها أو غفلت أعيننا عن رؤيتها ، وسواء أجبناها أو استنكرنا مظاهرها . إن نظاما جديدا يبزغ شمسه الآن ، ويولد بين ظهرانينا ، ونحن مستحدثوه ومنشئوه ، أو على الأقل نحن حراسه والأوصياء عليه ، الذين تقع على كواهلهم تبعات خلقه وصياغته فى القالب الذى سوف يأخذه فى مستقبل الأيام .

« ولعل خير كلمة فى الأعوام الأخيرة ، تعبر عن أهم مظهر من المظاهر السياسية لهذا العصر الجديد ، هى التى فاه بها مستر هنرى ولاس حين قال : « إن القرن العشرين هو قرن الرجل العادى » . ونرى بدء ظهور هذا القرن حينما وسعت دائرة حقوق الانتخاب حتى أصبحت تشمل الآن جميع المواطنين والمواطنات . ونشاهد هذه المظاهر كذلك فى تطورات التشريع الاجتماعى الحديث . فلم نكتف فى بريطانيا بمنح كل رجل وامرأة حق

---

(١) ترجمة مجلة التربية الحديثة التى تصدر فى القاهرة .

الانتخاب ، بل نعمل فى مواظبة واطراد على إنشاء ديموقراطية اقتصادية حقة ، فيها يتقارب الناس فى الحرية الاقتصادية ومستوى المعيشة ـ ديموقراطية تزول فيها أسباب الفقر بين الناس ، ويساهم الجميع فى الشئون العامة ، ويتقاسمون معا الخدمات والأطايب التى تستطيع الدولة أن تقدمها لأبنائها .

« ولكن ربما يظن البعض اننا حينما نستكمل هذه الأمور نكون قد أنجزنا مهمتنا فى خلق ديموقراطية طيبة . ولكننا نكون فى الواقع قد خطونا فقط الخطوات الأولى فى انشائها . فانا حين ننتهى من انشاء ديموقراطية سياسية ، يكون قد بقى علينا أن ننهض بواجب آخر أجل شأنا ، وهو أن نخلق حضارة ديموقراطية ـ نخلق لونا من الحضارة لم تظفر بعد به انجلترا ولا الولايات المتحدة . وسوف يحكم التاريخ لنا أو علينا إذا أصبنا نجاحا فى تحقيق هذا الهدف ، أو منينا بالهزيمة والاخفاق . وإن كان لا يزال أمامنا المجال واسعا حتى الآن لخلق هذه الحضارة الرفيعة المباركة .

« وقد نسائل أنفسنا ما الدور الذى سيضطلع به الرجل العادى فى هذا القرن؟ هل سيظفر بالمعارف ويتحلى بمناقب الذكاء والأخلاق التى تعينه على تكوين أحكام سليمة بصدد المعضلات السياسية المعقدة التى سوف تواجهه فى الداخل وفى الخارج ؟ بل أهم من ذلك ، هل يقدر على أن يقيم صرح حضارة عظيمة ؟ إن حضارتنا الحالية سوف تجبر على أن تتلاءم مع مصالحه وتتكيف بذوقه ورغائبه وكفايته ، وستسمو وستنخفض تبعا للمستوى الذى سوف يبلغه » . اه

فهذا مفكر غربى يرى أن خلق حضارة رفيعة مباركة ضرورى لحفظ الديموقراطية الاقتصادية الحقة . وكانى بالديموقراطية الاقتصادية هنا ـ تعنى ما أردنا فهمه ، فى بحثنا سابقا ، من كلمة المدنية ، وهى تعنى بأمر المعيشة

وتنظمها لتزيل أسباب البؤس والفقر . والفرق بيننا وبينه أننا نرى أن الحضارة هي التي تضمن للمدنية الصحيحة استقرارها وتقدمها ، فلا بد من أن يسبق المدنية ولو شيء من مبادئها ، ثم تتبادلان ، الحضارة والمدنية ، التفاعل في التقدم والرقي ، والا فما دامت الحضارة في أزمة ، فلا ضمان للمدنية ولا للديموقراطية مطلقا . وأزمة المعيشة اليوم ، منشؤها أزمة الحياة ، أي أزمة الحضارة . فالحضارة قد تنشأ بدوية ، وأكاد اعتقد أنها هكذا تنشأ ، لترفع من نفوس العاملين فيقيمون مدنية صحيحة ، تعتمد على حضارة تتكامل معها . فالحضارة تسمو وتنحط ، وتتقدم وتتأخر ، وبحسب سيرها تسير سائر مظاهر الحياة البشرية . فالحضارة ترد من القلب والمدنية تصدر عن الذهن ، ولذلك قد تتشابه مظاهر المدنية في بلاد مختلفة ، ولكن الخلاف في الصبغة يبرز فيما تنطوي عليه الحضارة من ثقافة ونزوع وشعور وبواعث .

أكثر ما تعتمد المدنية في تكونها على العلوم البحتة (Sciences exactes) وهذه لا تختلف بين بلد وآخر ، فليس هناك بلد في العالم يشك علميا في أن زوايا المثلث تساوي زاويتين قائمتين مثلا . وأما الحضارة فانها تعتمد في أسسها على نواميس الحياة وعلومها وبواعثها ، وهذه تسير مع الحياة التي لا تعرف استقرارا ثابتا ولا استمرارا متواصلا ، مهما حاول الجبريون!... وإذا اعتمدت المدنية على بعض مبادىء علوم الحياة فلأمور تتعلق بالشكل أكثر مما تتعلق بالجوهر ، أو لأسباب تتعلق بالحياة نفسها ، كالمرض والصحة .

وكم هو بعيد ذلك الزمن الذي يجب أن نقضيه بالانتظار حتى تتكون الديموقراطية الاقتصادية لنباشر خلق الحضارة ! ولا أدري إذا كان في الامكان خلق الديموقراطية الصحيحة . دون أن نهيء لها حضارة قوية في النفوس ؟ . . .

ثم أنني ألاحظ أن السير لفنجستون يفكر كغربي يرى ان رسالة أمته أن تقوم بكل هذه الأعمال العظيمة ، خلق الديموقراطية وخلق الحضارة الرفيعة ، لتمن بها على العالم . وهنا الخطأ الأكبر الذي انطوى عليه التاريخ في أدواره المختلفة ، فكان خطرا على السلام العالمي .

منذ القديم والسلام العالمي ينشده الانسان ويتمنى أن يهنأ بظلاله . وما من حضارة قامت ، على اختلاف درجات الحضارات ، الا واهتمت بأمر السلم . ولكن الخطأ الأكبر كان يتجلى في محاولة كل أمة متحضرة فرض حضارتها على العالم ، معتقدة أن التأثر بمبادىء حضارة واحدة يضمن السلام . فكانت هذه المحاولات ولا تزال ، سببا رئيسيا في ايقاد نيران البغض والشحناء والفتن والحروب . (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) .

وليئق السير لفنجستون وغيره من مفكري الغرب أن ليس للسلم استقرار مادام الغرب على غروره هذا ، لا يأبه للشرق ولا يحسب لمعاونته في خلق الحضارة التي يريدها حسابا .

في الغرب علماء انسانيون حقا ، إذ يرون ضرورة التعاون بين الشرق والغرب ، ويعتقدون انه لا يجوز لأية حضارة ، مهما سمت ، أن تعمل بمبدأ دمج سائر الحضارات . بل الأولى أن يفسح المجال لنمو كل حضارة وفق اجوائها ، على أن يكون هناك قدر مشترك يجمع بين أبناء الحضارات المختلفة مع بقاء كل منها على صبغته . وهذا هو الرأي الأصوب ، اذ كما قبل مبدأ الوحدة في الاختلاف في تكوين الأمم ، فلا بد من أن يقبل المبدأ ذاته في تكوين الفكرة الانسانية . والعبرة لبعض الفكرات المشتركة الموحدة ، فما هي ، واين نجدها ؟ . . .

يتعذر الاهتداء اليها فى الغرب وفى أقصى الشرق ، فهما قطبا الكون فى الحضارات . والفرق عظيم بين مظاهر الحضارة فى كل منهما . وكل يتعصب لحضارته ، أو لمظاهر حضاراته المتطرفة .

ولما كان إيجاد تلك الفكرات يجب أن يكون بطريق الانبثاق الروحى ، بعد تفاعلات نفسية عميقة تؤثرفيها حياة تستقى من كلا المعينين ، ومايتفرع عنهما ؛ فان الشرق الأدنى أو الأوسط بصورة عامة ، والشرق العربى منه بصورة خاصة ، مدعو لتأدية هـــذه الرسالة ، وقد سبق وبينا كيف ان رسالاته غزت وتغزو العالم منذ القديم ، والسر فيما تنطوى عليه من هذه الفكرات المشتركة . وماقد نجده فى الأدب الغربى منها وفى فلسفته ، يعود فى الأصل الى أحد هذين الشرقين . فليس فى مصلحة الغرب نفسه أن يعرقل سير الشرق العربى وتقدمه ، اذا كان يرغب حقا فى السلام . وان الشرق العربى الذى تدعوه الحياة للقيام بهـــذه الرسالة المقدسة ، هو الجدير بهذه الرسالة اليوم ، وما الحوادث التى تنتابه ، ولا المصائب التى تنزل به سوى حوافز تستخدمها الحياة لايقاظه من سباته ، ودفعه لميادين العمل فى هذه الأزمة الخانقة التى تتخبط فيها الحياة .

استقرت الحضارة فى الغرب مدة طويلة ، وازدهرت فى أحقاب متتالية ، بفضل جهود رجال فيه مخلصين ، وبعد أن سبق لها مرات عديدة مثل هذا الازدهار فى الشرق ، أقصاه وأدناه ، وكان ازدهارها ، هنا وهناك ، بالقدر الذى ساعدت عليه إمكانات الحياة ودرجة تطور الروح الانسانية فى نفوس بنى الانسان . ولذلك كانت فى تقدم ورقى من حيث المظاهر والأعراض ، ولكنها هى لم تتبدل من حيث الأسس والجوهر . فهى حضارة واحدة انسانية ، سواء أكان اشعاعها فى المشرق أم فى المغرب .

صفاء فى الروح ، واطمئنان فى النفس ، وتعاون بين الناس فى المجتمع ، وتضحية بكل عزيز ، حتى بالحياة ، فى سبيل القيم الروحية والمثل العليا . فهى فى الحقيقة سعى متواصل فى سبيل تكامل انسانية الانسان ، فى ذاته وفى مجتمعه .

ويجد المراقب لتطورات الحوادث فى التاريخ أن ظاهرة حيوية جديدة تكاد تتحقق ، وهى أن الحضارة لن تشرق فى الشرق لتغرب فى الغرب ، بل هناك وعى جديد ، هيأت له المطبعة وانتشار المعرفة والعلوم والآداب يحاول معه الغرب أن يستعيد نهضته ، وأن يعود لتلك السجايا والأخلاق التى تتحلى بها الشعوب فى نهضاتها ، وينقذ نفسه من تلك التى تبرز فى عهود انحطاط الأمم ، وقد بدت بوادرها بالظهور فى أنحائه ، فهو وقد تنبه الى تلك الأخلاق الهدامة أكثر مما تنبهنا اليها نحن عند ماظهرت فى ارجائنا فى أوج ازدهار الحضارة عندنا ، أخذ يخشاها ويعمل على إفناء جراثيمها الفتاكة ، ولا يتمنى له الشرق فى وعيه سوى النجاح .

فهو ونحن اليوم فى حالة متقاربة فى المقاومة : فالغرب يعمل على انقاذ ذاته من خطر جراثيم سجايا الانحطاط فى اخلاقه ، خوفا من أن يعود لظلام القرون الوسطى ، ونحن ، وقد تفتحت اعيننا للنور ، بعد سبات عميق طويل اخذنا نحاول انقاذ ذاتنا ايضا من خطر تلك الجراثيم التى رمتنا فى أعماق ذلك الظلام . تجمعنا مصيبة واحدة ، وهى اشباح الانحطاط الرهيبة ، فيجب ان توحد جهودنا آمال مشتركة فى خلق حضارة تليق بما وصل اليه الانسان من تفهم ورقى ، وتحقق فكرة السلام ، الهدف الاسمى لانسانية الانسان وحضارة السمو فى حياته .

قلت ان الشرق يتمنى للغرب النجاح فى اســـتعادة نهضته ، لأنه سمح بمواطفه التى انبعثت عنها العناصر الاولى لتلك الحضارات ، وهو مع ذلك حكيم يرى أن تتصل هذه الظاهرة ، ظاهرة محاولة الغرب العودة لنهضته قبل ان يستغرق فى النوم ، بظاهرة ثانية ، اسمى مظهراً وأروع أثراً ، وهى تعاون الغرب والشرق على استكمال الحضارة نموها وازدهارها ، فلا نعود لعهد الانتقال فيستأثر بها الشرق لاستعباد الغرب مثلا ، كما استعبد الغرب الشرق ولا يزال لاستعباده بعض الآثر ، ويظل السلام العــالمى مهددا ، وتظل الحضارة نفسها بعيدة عن اوج اكتمالها . هذا ماتقضى به الحكمة اليوم ، فهل للغرب أن يدرك ذلك ، لاسيما وقد اصبحت مقدرات الحضارة ، على ما المع اليه لفنجستون ، بيد الرجل العادى ، اى تحت تصرف الجماهير .

ومهما حاولنا تفهيم الحالة واقناع الغرب بضرورة تبادل الاحترام والتعاون ، فلن يجد ذلك نفعا ، إذا لم يعمل الشرق عامة ، والشرق العربى خاصة ، على تحقيق ذاته الانسانية الرفيعة ، بالتكتل الصحيح والتضامن المخلص والعمل المنتج ، ليبرز قويا جبارا ، جديرا بالاجلال والاحترام ، فتمد له الايدى للتعاون ، ويتحقق السلام ، وقد بدت البوادر ، وهى مبشرة ونرجو ان يكون ما بعدها محققا لما نرجوه للانسانية من تقدم ، وللحضارة من رقى وللســلام العالمى من استقرار واستمرار ، بزوال أزمة المعيشة وأزمة الحياة .

فعلى الشرق العربى تبعة عظمى يجب ان يفــكر فيها وان يتأمل فى عواقب اهماله واستهتاره . ولن يقوم بما على عاتقه من تبعة انسانية اذا لم يجد الشباب فيه مجالا فسيحا للتفتح والانطلاق بحرية صحيحة تبعده عن الفوضى التى يكاد يتخبط بها ، وعن التضييق الذى لايزال يشكو منــــه ،

ويهلل به فوضويته او جموده . ان للشباب فى الأمم وضع خاص ، نفسيا وروحيا وخلقيا . عدا عما لنموهم الجسمى فى دوره هذا من تأثير فى سلوكهم وتصرفهم ، ولهذا الوضع تأثيره الكبير فى سير الأمم وفى تحقيق أهدافها ، فدراسته واجبة ، وهذا ما سنحاوله فى الفصول القادمه .

obeikandl.com

الفصل الثانى

الشباب فى المجتمع

عمل الشباب وأثره فى الأمم

مم نخشى على الشباب والمستقبل له ؟

اليقظة الواعية واليقظة البلهاء

صلة الشباب بالاجيال

obeikandl.com

obeikandl.com

خلاصة الفصل الأول

استحكمت أزمة الحياة فى العالم ، فتبعتها أزمة المعيشة ، وزاد فى تأزمها تقدم مظاهر المدنية وتأخر الحضارة فى عقائدها ومبادئها وقيمها الروحية والروحانية ، وغالى الناس فى طلب الرخاء والرفاهية ، وقفوا عند مظاهر المدنية وتوفرت عندهم أسباب البؤس بنوعيه : بؤس الحاجة وبؤس الترف ، فدوى صوت النذير بالانهيار والانحطاط . ولن يجد العالم خلاصا من الكارثة إلا بتعاون الشرق والغرب ، وبنهضة الشرق العربى بصورة خاصة ، إذ هو مدعو اليوم للقيام برسالته فى الحياة . وهل يستطيع ذلك إذا لم ينشأ الشباب فيه على وعى صحيح وعزم جبار وثاب ؟ ... فما هو الشباب وما حقيقته وما هى مشاكله ، هذه هى مباحث هذا الفصل ، تمهيدا لمعالجة حلها بتربية تتفق مع ما تستلزم النهضة الصادقة ، والرسالة القدسية التى يدعى لتحقيقها ونشرها ، من سجايا وأخلاق تنبعث عن تفكير صحيح وشعور دقيق واتجاه صادق ، يكون منها العمل المنتج والسلوك المستقيم .

فما هى حقيقة الشباب وما هى مشاكله ؟ ...

١ — عمل الشباب وأثره فى الامم

اسمح لى ، أيها القارئ العزيز ، توضيحا لهذا البحث ، أن أقص عليك اسطورة حلوة ، هى اسطورة النهر المسحور ، انها أسطورة تستحث الشعور والبصيرة ، وتستثير التفكير والاعتبار . هى صورة تمثل أروع مظهر من مظاهر الحياة البشرية ، وتعبر أصدق التعبير عن ادق نواميسها الخالدة ، وأعمقها .

قال الراوى : اعتاد لقمان الحكيم ان يزور ، فى فصل الفاكهة من كل سنة صديقا له يدعى قيسا ، وكان يقضى عند صديقه هذا اياما حلوة يشعر فيها أنه فى نعيم الخلد ، ذلك النعيم الأبدى الذى وعد الله به عباده الصالحين .

ولم لا يشعر لقمان بهذا النعيم ؟ فدارة قيس الجميلة في بستان فسيح ، يجري في وسطه نهر رائع في رواته ، لما بذل من عناية في تنظيم سيره ، وحسن توجيهه ، وفي تزيين جانبيه بالازهار والرياحين والشجر الظليل .

وفي البستان مايشتهي المرء من فاكهة لذيذة ، وما تطمئن اليه النفس من ظل هنيء ، وخضرة تشع بنور البهاء والجلال ، وازهار عطرة ، زكية الرائحة ، مختلفة الألوان والتنسيق .

لم يكن لقيس هذا مورد ، يدر عليه المال الحلال ، سوى ما كانت تمنحه أشجار بستانه من ثمار يانعة لذيذة ؛ وقد كان موردا طيبا يكفيه ويفيض عن نفقاته ، على الرغم من رفاهيته وسخائه . لذلك كنت تراه ؛ والابتسامة لاتفارق ثغره ، وكان المرح جزءا من نفسه المطمئنة الهادئة .

فلا عجب اذا سكنت نفس الحكيم الى تلك الظلال الحلوة الهانئة ، والمناظر الجميلة الفتانة ، والحياة المرحة الشائقة ، ولا غرابة اذا أنس بنضارة هذه القطعة من الارض الخصبة ، وبلطف صديقه وذوقه . فنفس الحكيم حساسة ، وروحه ، في رقة شعورها ، ترتاح لجمال الطبيعة وروائها وتطمئن للحياة ، تدب في ارجاء أرضها الخصبة الخيرة .

لذلك كان دائم الذكرى والحنين لهذه الحياة ، عندما اضطرته ، للابتعاد عن الوطن ، إحدى سياحاته العلمية التي اعتاد القيام بها في أطراف العالم المعروف بين وقت وآخر ، شأن الحكماء في كل عصر ومصر ، واستمرت سياحته هذه ، وقد حالت بينه وبين الاستمتاع بالحياة الهانئة الهادئة في بستان صديقه ، مدة سنتين ، عاد بعدها إلى وطنه ، يحدوه شوق خفي وذكريات أيام حلوة . فما حان موعد فصل الفاكهة ، حتى قصد صديقه يستحث الخطى لتقريب موعد حياته الحلوة الممتلئة نعيما ومرحا واطمئنان نفس .

ولكن ! . . . لم يصل لقمان إلى مقر نعيمه حتى استولت عليه الدهشة ، واستحوذ على نفسه الحزن والأسى ، طول ما رأى وغريب ما سمع .

مسكين قيس ! . . . فقد حلت به النقمة بعد النعمة ، واستبدلت الدار بأنسها وحشة . رأى لقمان صديقه حزينا كئيبا ، وسمعه يشكو إلى الله سوء حاله ، ناقما على ذلك النهر الذى يجرى فى بستانه ، إذ يلصق به كل ما أصابه من شقاء وفاقة وإحن !

تألم الحكيم لحزن صديقه ، وهو المضياف الكريم الذى لا تفارق الابتسامة ثغره ، ورثى لشكواه ، وعهده به مقداما نشيطا يهزأ بالكوارث ويسخر بالاحداث ! . . . وقد استغرب نقمة صديقه على ذلك النهر ، فقال له : وما علاقة هذا النهر بمصابك ، ياقيس ؟ . . .

فنظر اليه قيس شذرا ، واطرق قليلا ثم تنهد وقال : أتذكر ، يالقمان ، نضارة هذه الأشجار واخضرار أوراقها وتلون أزهارها ، أنسيت لذة تلك الثمار اليانعة التى كنت تستطيب طعمها ، وتلتهما بيديك وفمك وعينيك ؟ ألم تكن فى للحياة هذا البستان قوة السحر اذ كانت تنتقل بساكنيه الى مايشبه النعيم فى جنة الخلد ؟ . . .

قال الحكيم : وكيف أنسى ذلك ، ولم يحدونى الى العودة سوى تلك الذكريات الحلوة ! . . . فمالى أرى اليوم جثتى كئيبة الوجه ، عارية ؟ ومن اقتلع هذه الأشجار المرتمية على الأرض صرعى ، وما سبب اصفرار أوراق مابقى قائما منها ؟ . . . فأشار قيس إلى النهر ! . . .

ازداد استغراب لقمان ، وبدت على وجهه أمارات الدهشة والارتياك وأخذ يتساءل قائلا : وما شأن هذا النهر ؟ . . . فافترت شفتا قيس عن

ابتسامة ، لم تكن ابتسامته المرحة المعروفة ، بل كانت ابتسامة صفراء حادة هازئة حاقدة ، وقال : « اسمع أيها الصديق ! لاشك عندى أن هذا البستان مسحور ، ومستقر السحر فيه هو هذا النهر المشئوم . فان الجن والشياطين تسكنه ، والعفاريت تتصرف بسيره ، وقد رأيتها جميعا بعينى فى هاتين السنتين .

« قد كان هذا النهر المسحور هادئا خيرا يفيض على بستانى فى الشتاء فيمنحه الطمى والرى ، وكنت أستخدم القنوات برفع السدود ، عند انقضاء الشتاء فترتوى الأرض من مائه الجارى بانتظام وسكون ، فكان بذلك سبب ازدهار هذا البستان وروائه .

« ولا أدرى أى ذنب أغضب سكان هذا النهر ، أو أية جريمة اقترفتها حتى آلمت ساحره ، فهيج على جنه وشياطينه وعفاريته ، إنه أخذ يطغو فى هاتين السنتين طغيانا هائلا فى فصل الشتاء ، ويفيض فيضانا صارخا صاخبا ، وكنت أرى الشياطين تخرج منه وتكسر الأغصان وتقتلع الأشجار ، وتذهب بالكثير منها لتلقيه خارج البستان ، وقد هدمت عفاريت النهر وجنه هذه السنة دارتنا الحلوة التى كنت تطمئن اليها ، وتجد فيها الراحة والأنس والسكون .

« ارتعت فى السنة الماضية ، واستولى على الرعب لهول ما شاهدت من أعمال شياطين النهر وجنه ، وقد كنت أراها وأسمع أصواتها ، ولو شئت لحدثتك عنها كثيرا ! . . فهجرت الدار فى شتاء هذه السنة ، وكان ذلك سببا لنجاتى من الموت ، وليتنى لم أفعل ! ولم أنج ! . . . اذ خير لى أن أكون من ساكنى الارماس ، عن أن أشهد بأم عينى هذا البؤس والخراب ! . . . وهنا ترقرقت عيناه ، وفاضت بالدموع ، وبهذا استسلام قصير لعالم الذهول ، عاد متمما حديثه ، وهو يتجلد محاولا امتلاك أعصابه ، وقال :

« كانت هذه حالة نهري المسحور في الشتائين الماضيين ، أما حاله في سائر الفصول فانها على ماترى : يشح بمائه ، فلا أجد وسيلة لارواء ماتبقى فيه من شجر ، أو ما أزرعه من أزهار وخضر ؛ ولو لم يضن على في هذه الفصول بالماء ، لوجدت لنفسي من البؤس مخرجا ، ولاستعضت عن خسائر الشتاء بأرباح سائر الفصول . أفلا تجد في هذا التناقض الواضح العجيب ، من الشح والفيضان ، مايدل على فعل السحر ، وعمل الجن والشياطين ؟ . . . . »

هنا أخذ لقمان الحكيم يفكر باحثا عن الاسباب والعلل . وكيف تريد منه أن يشارك قيسا اعتقاده بأن ماأصابه إنما هو من تأثير السحر ، وفعل الجن والشياطين ، وهو العالم المدقق الذي يرجع بالحوادث إلى أسبابها ، باحثا عن العلل .

تبين للقمان ، بعد البحث والتنقيب والتفكير ، أن لهذا النهر ، الذي يشفه صاحبه بالمسحور ، سواعد عدة كانت تغدق عليه من مائها الغير فتمده بالحياة ، وقد تنبه الى هذه السواعد بعض الاغنياء من أصحاب الاراضي المجاورة لها ، فغيروا اتجاهها واستخدموها في ري أراضيهم ، فكان ذلك سببا في شح النهر بالمياه . وأما فيضان المياه في الشتاء فقد نشأ عن هجوم سيول أتيه جرافة ، لم يكن لقيس ولا لنهره وبستانه عهد بها . فهي غريبة عن تلك المنطقة ، وما جعلها تتحكم في بستانه سوى جهله ، وما أصابه من اضطراب بسبب شح نهره .

أوضح لقمان لصديقه تلك الاسباب والعلل ، وأرشده لطريقة الوصول إلى حقه في اعادة مجاري السواعد الى مجرى نهره ، وعلمه كيفية حفظها من الضياع والاعتداء ، موجها نظره إلى أهمية تنظيم مجاريها ومجاري تلك السيول الآتيه ، وأعانه على تحقيق ذلك . فعاد الى ذلك البستان زهوه

وازدهاره ، وعاد لقيس مرحه ويساره ، اذ أصبح يحسن التصرف بنهره وسواعده ، ولا يخشى السيول الآتيه ، وانما يستفيد منها .

هنا استغرق لقمان ، وهو الحكيم الذى لا يقف عند الظواهر المادية ، فى تأمل شاسع الآفاق ، وتفكير بعيد الاغوار والاعماق ، فانتقل من عالم الجماد والنبات الى عالم الانسان وقال فى نفسه : الا يجوز أن يمثل لنا هذا البستان الشعب فى الامة ، وقيس حكومتها ، والنهر حيويتها ، والسواعد شبابها ؟ . . . ثم ألا يجوز أن نرى فى هذه السيول الآتيه الاغراب الاقوياء ، وهم لا يجدون ضعفا فى أمة انصرف عنها شبابها الا وتكتسحها غازية تسلبها كل ما تملك من رزق وخيرات ؟ . . هنا هز برأسه هزات خفيفة تعبر عن اقتناع المرء بحقيقة من الحقائق بعد تفهمها تفهما صحيحا وخاطب نفسه قائلا :

« يكفى أن يتجه الشباب فى أمة اتجاها يخالف مجرى حيويتها ، أى اهدافها ومثلها وتقاليدها وقيمها الروحية ، حتى يصيبها ما أصاب ذلك البستان وصاحبه » .

صدق لقمان . فالامة بشبابها ! اذ به تتجدد حيويتها ! الشباب هو الدم الذى تتجدد به حيوية الامة وتقوى ، كما يتجدد ماء النهر ويغزر بسواعده ولا خير فى أمة لا تستطيع الاعتماد على شبابها . واننا فى يقظتنا اليوم وفى نهضتنا انما نعتمد على وثبة الشباب المثقف الواعى فينا . فان انصرف عن واجباته نحو أمته ، وتلهى بمظاهر المدنية ووقف عندها ، فالويل له وللامة ! الويل لامة لا يهتم شبابها الا بأمر المعيشة والرفاهية ، ضاربين بما تقتضيه الحضارة الانسانية الصحيحة ، من جهد وتضحية وايثار وحكمة وشجاعة ، عرض الحائط .

٢ — المستقبل للشباب ، فمم نخشى عليه ؟

قال هدفريتك يخاطب شباب قومه : « ان اهمال العناصر الاساسية للحياة الانسانية ، في سبيل الحصول على الضرورات الذاتية ، هو نقيصة اجتماعية تؤدي الى الشقاء . فلا يجوز أن نخسر مكاننا في سلم الحياة » . ونحن لانريد أن نخسر مكاننا ، وبعزم الشباب فينا سنظل صاعدين الى الدرجات العليا مدركين بأن اهمال العناصر الاساسية للحضارة يؤدي الى خسران ذلك المركز وحاشا لشبابنا الواعي أن يريد لامته التقهقر والشقاء وهو يدرك أن في ذلك شقاءه ، وشقاء بنيه وأحفاده ، ان أبقى له الخصم بنين وأحفادا ! . . وفوق ذلك ذل الابد ! . . .

حاشا لشبابنا الواعي ، وهو الذي يستطيع ان يثب بامته الى قمة المجد ، أن يتلهى أو يهمل أو يقصر ! وكيف نخشى ان يكون جبانا مهملا ، وهو يدرك ادراكا تاما بان المستقبل له ؟ . . .

نعم ، المستقبل لك ، ايها الشباب ! لك غنمه وعليك غرمه ! فهل فكرت في مستقبلك ؟ وهل أنت مدرك علاقته بالمثـــل العليا التي تقود خطاك وشعورك ، وتبعثك على التفكير ؟

هل سمعت ذلك المفكر الغربي يقول لشباب أمته : « لايجوز أن ندعى العلاقة بمثل عليا تكون في الحقيقة أجنبية عنا » ؟ . . . انه يخشى على أمته أن تتصل بمثل عليا أجنبية عنها ، لئلا تفقد ذاتيتها ، فهل يدرك شباب البلاد العربية مغزى هذا النهي الحكيم ؟ هل ندرك ذلك ونحن في إبان الوعي والنهضة ؟ . . . وهل نجتنب الاخطاء ونسير باستقامة صحيحة ، وفي طريق مجدنا نحن ، لامجد الأغيار ؟ كل ذلك متعلق بك ، أيها الشباب !

obeikandi.com

اننا نخشى عليك ، وأنت الأمل ، ولك المستقبل ، من الأغيار ، ومنا نحن ، آباؤك وأقاربك وأبناء عشيرتك ، ومنك أنت على نفسك ! . . .

فاذا كنا نخشى على الشباب من المستثمرين النفعيين ، الذين لا يرون في الحياة سوى هدف واحد : هو المنفعة الذاتية ، وإذا كنا نخشى على الشباب من أولئك الطامعين الأشرار الذين لا يهمهم سوى الوصول الى مآربهم الخاصة ، مبررين كل وسيلة ، مهما انحطت وسفلت ، فلم لا نخشى على الشباب ، من الشباب نفسه ، اذا فسد وماع أو استكان ؟ . . .

وإذا كنا نخشى على الشباب من أولئك الذين تعودوا أن يطووا ، في ثنايا أردية كبريائهم وغطرستهم وأنانيتهم ، كل اباء وكل كرامة وكل عطف صحيح ، واذا كنا نخشى على الشباب من أولئك الذين تعودوا أن يضحوا في سبيل مصالحهم الخاصة كل مصلحة عامة ، تعود على الأمة بالنفع والكرامة والعزة ، فلم لا نخشى على الشباب ، من الشباب نفسه ، اذا أصبح يرى الحياة بأعين أولئك الذين يهزأون به ويسخرونه لمآربهم الذاتية ومصالحهم الخاصة ، باسم الدين حينا ، وباسم المصلحة العامة أو باسم الوطن أحيانا ، دون أن يدرك كيف يسير ، أو أنه يدرك ذلك إدراكا غامضا تقضي عليه حمرة أمل ، أو إدراكا صحيحا واضحا يعميه عنه قرص من الحلوى ؟ . . .

نعم ، اننا نخشى على الشباب من مكر أولئك الأنانيين النفعيين المستثمرين ، ومن خداعهم ؛ ولكننا أكثر ما نكون خشية عليه من أن يمكر هو نفسه بنفسه ، فينخدع عن سلوك الطريق السوي ، فيعود بنفسه وبأمته القهقرى ، ويفقد مستقبلا جميلا ، ما زال يغذيه بتفكيره وشعوره وأحلامه ! . . .

سئل المغيرة بن شعبة عن عمر بن الخطاب فقال : « كان والله أفضل من أن يخدع ، وأعقل من أن يخدع ؛ وهو القائل : لست بخب والخب لا يخدعني ».

حذار ! أيها الشباب ! حذار ! انتبه لنفسك ولمستقبلك ! ولا يكفي أن لا تخدع الغير ، بل يجب أن لا تخدع به ، إن كان خبا ! ولتكن نهضتك منبثقة عن يقظة واعية ، فالمستقبل لك ! المستقبل لك ، وهو لك وحدك ، فلا تفرط به لمصلحة من لم يعد له مستقبل يرنو اليه ! لا تفرط بمستقبلك ، ومستقبل أبنائك وأحفادك ، في سبيل مصلحة من أفقدته مطامعه الذاتيه الآنية عطف الأبوة على الأبناء ، فلم يعد يشعر أن لأبنائه مستقبلا ! . . .

وان أحس بذلك فهو الجبان الذليل الذي لا يقوى على تضحية شيء من وهم الفائدة الخاصة الحاضرة في سبيل مستقبل فلذات كبده ! . . . بل ، قد يكون الجبان الأحمق الذي ينخدع ، أو يخدع نفسه ، فيعتقد ان تأمين شيء من حطام الدنيا — مال مشبوه أو وجاهة مزيفة أو مجد موهوم — يكفي لحفظ مستقبل أبنائه الذين هم من صلبه ، متجاهلا ما لأبنائه في الوطنية أي لابناء الامة جميعهم ، من تأثير قوي في سعادة ابن الصلب ومجده ووجاهته ! . . .

كن يقظا ، أيها الشباب ، وكن واعيا ، واحذر هؤلاء وأمثالهم ! فانهم سيزولون وستبقى أنت وحدك تقاسي الامرين مما يورثك الجشع والجبن والخنوع ، اذا استكنت ، واذا نظرت الى الحياة بالاعين التي يرونها هم بها . وعندئذ لن تستطيع القول :

غيري جنى ، وأنا المعاقب فيكم فكأنني سبابة المتندم

لانك شريك بالجناية ، وشريكك ترك الدنيا الى حيث يجد جزاء أعماله ، وبقيت وحدك تقاسي وتتألم .

كن يقظا ، واحذر المساومة والمساومين ! احذر المساومة على كيانك وعلى حريتك واستقلالك ومستقبلك . احذر المساومين ، مهما كان مظهرهم واسترشد بالمخلصين الذين لم تفقدهم الأنانية عطف الأبوة ولم يفقدهم الجشع لذة التضحية فى تحضير مستقبل ينعم به الابناء والاحفاد . أولئك الذين يسيرون على ضوء ضمائر ينيرها العلم الصحيح والتجربة الواعية والادراك الصادق .

آن لنا ، أيها الشباب ، أن نتنبه لانفسنا وأن ندرك حقيقة كياننا فنعمل فى ضوء العلم الصحيح على السير بخطوات وئيدة متواصلة فى طريق التقدم والرقى كأمة مستقلة ، لها اسلوبها فى الحياة ، ولها تاريخها ونفسيتها الخاصة ، ومنهما ، وبما يلائمها من حضارات الامم الأخرى ، تستمد ذلك الأسلوب .

وليعلم الشباب ان الحيـــاة لا تخضع الا لمن يخضع لنواميسها . ومن نواميسها أن يسترشد الشباب بالراشدين ، وان يعتمد كل جيل على الاجيال السابقة لتستمر الأمة وتتكامل فى استمرارها . لا يستطيع الشاب أن يبدأ السير وحده ، ولا يجوز له ذلك ، اذ لا يمكن لأى مجتمع أن يكون أمة ، إذا لم تتضامن أجيالها فى التاريخ . وهذا الاتصال بين الشباب والراشدين ، ان هو إلا مظهر قريب من مظاهر تضامن الأجيال ، ليتم انتقال ما أنتجه العلم والاختبار والتجاريب من حنكة ومعرفة وحكمة وأعمال . فحياة الجيل الواحد اضيق من أن تتسع لايجاد كل ماتحتاج إليه الأمة من وسائل للعمل فى التقدم والرقى ، والكرامة والمجد .

قلنا اننا نخشى على الشباب من الدجل والدجالين ، ومن الطبل والتزمير ومن الطبالين المزمرين ، ومن الخداع والخداعين ، من أجانب ومن مواطنين مادام من هؤلاء من يحشر فى زمر المستثمرين المستغلين الانانيين ؛ وقلنا

أننا أكثر ما نخشى عليه اذ هو ساير ودجل وطبل وزمر ، وحاول أن يستشعر أو يستشعر ، وأن يدور فى دائرة ضيقة من دوائر المعيشة والرفاهية ، أى دوائر المدنية ، صارفا النظر عن الحضارة الحق ومباهجها الداخلية الرائعة ، فلا يتمتع بمسرات الجهاد فى سبيل القيم الروحية ، ولا يهنأ بتحقق انسانيته وما تنطوى عليه من طمأنينة وانس ، فتصبح الأمة به وبأمثاله متفككة الأوصال ، ضائعة الحقوق بين الأمم ، لا تجامل إلا بما يجامل به الاجير أو التابع لتشجيعه على الاخلاص لسيده . قلنا ما يعنى كل ذلك ، واكدنا ان الشباب ، إن كانت هذه طريقه فمستقبله مظلم هزيل ، ومستقبل ابنائه واحفاده ، ان لم يستيقظوا . أشد ظلاما ، وأكثر هزالا . ولا أدرى كم هى المرات التى يجب أن نرددها ذلك ، ليستيقظ شبابنا ، وهو العدة فى وثبات النهضة الصحيحة . فيقظة الشباب يقظة صحيحة واعية ، هى التى تنقذ الأمة ، وهو الذى يحررها ويدفعها قدما إلى الأمام ! ولكن اليقظة لا تؤتى نتائجها الطيبة إلا إذا كانت واعية فما هى اليقظة الواعية ؟ ...

٣ — اليقظة الواعية واليقظة البلهاء

قال أبو العلاء المعرى :

يأتى على الخلق إصباح وإمساء وكلنا بصروف الدهر نساء !

فما أصدق أبا العلاء فى قوله هذا ! ففى الاصباح والامساء سر الحياة فى الاحياء . وفى ظلام النوم ونور اليقظة يكمن سر الوجود بنواميسه وسننه .

هل يستسلم الانسان للنوم لولا تعب الكفاح والجهاد فى الحياة ، أو تراخى التقاعس والكسل فى بطالة الترف أو الفراغ ؟ ... ولم يسيطر النوم

المظلم على نفوسنا ، مجازا وحقيقة ، إلا يتم له ذلك بفعل السموم المخدرة والجراثيم ، أو بفعل تخمة الشره فى المآكل والمشارب وغيرها ؟ . .

وماذا نخشى اذا استمر النوم وطال أمده ؟ الا نخشى الفناء متى اتصل نومنا بالابدية ، وأصبح موتا صاعقا لا رجعة بعده ؟ . . .

واليقظة بعد النوم ، هل تستكمل وجودها اذا لم تنقلب لوعى صحيح تصبح اليقظة معه يقظة واعية ، تتميز حقائق الاشياء ، وتتصل بالواقع ؟ . .

وهل لهذا الوعى فى اليقظة نتيجة ما اذا لم تتبعه نهضة العمل المنتج ؟ . . أى تلك النهضة التى تستكمل بها الحياة مظاهرها ، لتمنح الأحياء كيانا وجدا وسعادة ! ؟

يذكر كل منا تلك الحالة التى تستولى على المرء عندما يفتح عينيه مستيقظا ، ولكنه وقد غلبه النعاس يعود لاغماضهما مستسلما لنوم جديد وإننا نقول لمن تتاوح حركات اليقظة فى عينيه فى مثل هذه الحالة ، أن النوم لا يزال فى عينيه ، فهذه اليقظة هى اليقظة البلهاء التى يظل المرء فيها متصلا بعالم النوم والاحلام . هى يقظة غامضة مشوشة ، لا تتصل بأى وعى صحيح ولا يتأثر من هذه يقظته الا بما فى عالم الرؤس والمنامات والأحلام من أوهام ومين وسراب . فتعيد شبابنا من شياطين اليقظة البلهاء ! وهى ، إذا استسلم اليها المرء ، اعادته لنوم عميق مظلم ، وحرمته من روعة جمال الوعى ومن نعمة اليقظة الواعية ، وسعادة نهضة العمل . وما يصدق على الفرد ، فى هذا المعنى ، يصدق على المجموع والأمم .

لا يشك أحد اليوم فى يقظة الشرق بصورة عامة ، ويقظة الشرق العربى ، بصورة خاصة ، بعد نوم عميق وهجوع طويل ، تفتحت بعده اعيننا للنور .

تفتحت اعيننا للنور ورأينا ما حولنا من مآثى الغرب ونتاج أعماله ، فدهشنا ؛ ثم أخذنا بما دهشنا منه .

أخذنا بما دهشنا به من مآثى الغرب ، وأحسسنا بضرورة التعلم ؛ تعلم كثير منا ، فزادنا نور العلم حدة فى البصر ، فاذا بنا نخترق حجب الزمن ونطلع على ما كان عليه أسلاف قدماء من حكمة وتقدم ، ومن سؤدد ومجد فدهشنا دهشة على دهشة ، وأخذنا بما أدهشنا به فى الزمن ، كما سبق وأخذنا بما أدهشنا به فى المكان . فتهنا بهر الزمان والمكان ، وضللنا سواء السبيل ، إذ سرنا فى طريق الاعجاب بما ليس لنا يد فى إنتاجه ، وتجولنا فى ميادين التبجح بأعمال وأمجاد ، اعتقدنا أن لا قبل لنا بها ، فتجنبنا طرق التشبه على الأقل ؛ ورحم الله القائل :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

مع أن الواجب يقضى علينا أن نكون أكثر ثقة بأنفسنا ، ونسير فى طرق العمل أصيلين ، أى عاملين مبتكرين ، لا متشبهين .

أعجبنا بثقافة الغرب وصناعته وسياسته ، وبمؤسساته وتقاليده ونظمه إعجابا صوفيا غيبنا عن أنفسنا . فاستعبدنا الغرب بما أعجبنا به ، وهو يسخر بنا حينا ، إذ يستثمر فينا البساطة والسذاجة ، أو الانانية والطمع مع الذكاء ، ويخنق حينا آخر ، إذ يرى فى استسلامنا هذا خطرا على السلام وضعف الضعيف واستسلامه ، على ما سبق وألمعنا إليه ، أشد خطرا على السلام من قوة الأقوياء ، لأن الضعف والاستسلام يشجعان الاطماع . ولذلك قال أحد الغربيين ساخرا ، وقد وقعت الواقعة فى فلسطين الجريحة ، وتنمر فيها أضعف البشر قومية : « ما زال العرب يتبجحون بموقعة حطين ويتلهون بتبجحهم هذا ، وهم يكادون يفقدون الموقع نفسه ، ولا يشعرون ! . . . . »

ذلك ، أننا أصبحنا بمآثر الآباء والأجداد في العصور الغابرة إعجابا روحيا عميقا ، نقلنا إلى تلك الأزمنة ، فتملكت نفوسنا وسيطرت على تفكيرنا وشعورنا وإرادتنا ، وأصبحنا نعيش في الماضي أكثر مما نعيش في الحاضر ، ولم يعد للمستقبل عندنا أي حساب .

يذكر فرويد أوبرغسون ، فنذكر ابن بختيشوع أو ابن رشد ، يذكر أديسون ، فنذكر ابن فرناس ، وإذا كان عندهم بتهوفن ، فعندنا الفارابي والموصلي ... وهكذا ، ما زلنا نتلهى بذكر السلف الصالح ، ونتبجح به ، حتى ضج منا هذا السلف ، وهو ، في عليائه ومجده وتساميه ، يأبى أن يفتخر به خلف لا يستطيع ، هو بدوره ، الافتخار بهم .

وما أصدق الرصافي في قوله ، وقد تألم لهذه الظاهرة :

أرى مستقبل الأيام أولى ... بمطمح من يحاول أن يسودا
فما بلغ المقاصد غير ساع ... يردد في غد نظرا سديدا !
فوجه وجه عزمك نحو آت ... ولا تلفت إلى الماضين جيدا !
وهل إن كان حاضرنا شقيا ... نسود بكون ماضينا سعيدا ؟

وكان من نتيجة هذا الغرور التاريخي أن أضعنا رجالنا ، إذ لا نحترم معاصرا ولا نقدره ، مهما عمل ، ومهما كان في استعداداته من إمكانات في الاعمال والتوجيه ، فأضعنا الكثير من إمكاناتنا كأمة . وأصبحنا في يقظتنا هذه نسير القهقرى ، إذ لا نرى للمعاصر أي حق في مجاراة الاقدمين وأول ما نسأل عن أسرة المرء وعن أبيه ، طاوين كشحا عن ذكائه واستعداداته ومآتيه ، فاستحكمت فينا أنانية عمياء ، لا تسمح لنا بتقدير

الفضل واحترام ذويه ، بل كل منا يرى أنه وحده الجدير بالتقدم والخلود ... فتحكم الحسد والتحاسد واستطالا فى تحكمهما .

ولا ندرى إلى أى هاوية نسير إذا استمر التحاسد مسيطرا على النفوس ! وهو فى سيطرته على النفوس التى تدعى الثقافة ، وبين أصحابها شهادات ورقية تؤيدهم ، أشد وطأة على كيان الامة ، من سيطرتها على نفوس الجهال السذج . فكيف بك إذا كانت تلك النفوس المثقفة منحطة فى اعجابها نحو كل غريب . وكثر هم أولئك الذين لا يحسنون الاصغاء إلا للاصوات الاجنبية ، ولا يعجبون إلا بها ، مهما اشتهرت بالضجيج ! . . .

أنا لست ممن لا يتذوقون الأصوات الأجنبية الحسنة الايقاع والاتساق والتلحين ، ولست ممن لا يعجبون بها ؛ بل أنا ممن يتذوقونها ويعجبون بها ويعترفون لاصحابها بالفضل والمنة على الانسانية والحضارة . ولكننى ، مع إعجابى الكبير بآثارهم وشعورى العميق بفضلهم ، أتذوق باعجاب وفخر وشكر بايقاع المواطنين وتلحينهم ، إذا أحسنوا .

فعلينا أن نتذوق كل جمال رائع وأن نتفهم كل حكمة صادقة ، وأن نحترم كل عامل مخلص ، فى أى مكان كان المصدر والى أى أمة انتسبوا ، فالحكمة ضالة المؤمن ، أينما وجدها التقطها ، ولا عداء فى العلم ! ولكن يحق لنا مع ذلك ، بل يجب علينا ، أن يكون لكل جمال أو حكمة أو عمل يتصف بتلك الصفات ، ويصدر عن المواطنين من أبناء أمتنا ، أيا كان دينهم ومذهبهم الاجتماعى والسياسى أو المنطقة التى ينتسبون اليها ، تذوق خاص فى نفوسنا ، وهزة متميزة فى قلوبنا ، إذ بتذوقنا لما فى نفوس أبناء أمتنا ، وتقديرنا لما ينتج مواطننا نعيش نحن ، إذ يعبر ذلك عن كيان الفرد منا وعن عناصر تكون المجتمع ، وبتذوقنا لما فى نفوس الآخرين

ويحصر تقديرنا بانتاجه وحسب ، نستسلم له فيعيش فينا وبنا ، فلا غرابة اذا حرص على ابقائنا لقمة سائغة يلتهمها متى شاء .

والفرق عظيم بين أمة تعيش فى نفسها بنفسها ، وبين أمة يعيش فيها وبها الآخرون .

ولا يعنى قولنا هذا أننا ندعو لتقدير أى انتاج وطنى ، وكيفما اتفق تحققه ، فاننا نقع عندئذ فى غرور أشد خطرا من الغرور التاريخى ، وأشد فتكا ، وهو الغرور الوطنى ، ونحن نحذر المواطنين منه ، لأنه يؤدى حتما لقلب الأوضاع ، ويفسد الاذواق ، اذ نحاول أن نرى القبيح حسنا والشر خيرا والباطل حقا ، فنصطنع التطبيل والتزمير ونطمئن للادعاء والتزييف ، باسم التشجيع حينا ، وباسم تبادل المنفعة حينا آخر ، فيكثر التدجيل ، ويتأكل النفوس التحاسد .

اننا نريد تذوقا وتقديرا وتشجيعا يرفع المستوى فى الانتاج والمعيشة والابداع ، ونرفض كل تزييف يحط به عن المستوى اللائق بالحضـــارة الانسانية والكرامة الوطنية وثقافة الفرد .

اننا ندعو ليقظة واعية ، وان يقظة تؤدى الى ما مر من انطواء أو غرور أو تحاسد ، أو افساد الأذواق أو قلب الأوضاع الطبيعية فى الاشياء والاعمال والانتاج ، ان هى الا يقظة بلهاء ، نعيذ أبناء العروبة ، والشباب منهم خاصة ، ولا سيما المثقفين ، من ويلاتها ، لانها تشبه تلك التى يساور فيها المستيقظ ، وهو لايزال فى فراشه ، أحلام وأحلام ، قد تدفعه للعودة الى سباته ، دون أن يعى لواقعه .

openkanda.com

ونحن انما نريد لبلادنا العربية يقظة واعية ، تترك معها الفراش ودفئه لتتصل بصميم الواقع ، على أى درجة كانت حرارة جوه ، ولتتحسس حقيقة الحياة ، أيا كانت الجهود والتضحيات التى تتعرض لها . وبذلك ، وبذلك وحسب ، نستطيع القيام بنهضة صحيحة مباركة ، كانت ، ولا تزال ، العنصر الفعال فى تقدم الامم ورقيها ، اذ منها تنبثق القوة ، الباعثة على كل تقدم ورقى ، والشرط الاساسى فى كل تطور صاعد . الأمم الناهضة التى تحفزها يقظة واعية صادقة ، هى الامم القوية ، وهى تحيى فى المستقبل ، أكثر مما تحيى فى الحاضر أو الماضى .

نعم ، اننا نريدها يقظة واعية نحيى بها فى المستقبل أو يحيى بها المستقبل فينا ، فينتظم بذلك حاضرنا ويتركز ، ويصبح الماضى مستودعا لذخائر وخيرات تمدنا بالقوة وبالاسلحة والعتاد والمؤن .

وهكذا يتحقق للأمم وجودها ، اذ يصبح الاتصال بين الماضى والمستقبل ، بواسطة الحاضر ، وثيقا ، فتتصل الازمان فى حياتها ، ولا حياة لأمة لا تتصل أزمانها باتصال أجيالها فى الماضى وفى المستقبل ، وبتلاقى أهدافها وتوحد آمالها وأمانيها ؛ فلا دجل ولا تدجيل ، ولا طبل ولا تطبيل وما الحاجة للتزييف والخداع فى أمة تحيا بالاخلاص ، لابداعه ، وبالتضحية لا بدفع الناس اليها ، والتوارى عند الازمات ؟ ...

ان حياة الامم رهين بيقظة واعية تعقبها نهضة صحيحة ، لا بيقظة بلهاء تعود بالمرء الى سبات عميق ! ...

نلنا الاستقلال ، بعد جهاد وكفاح ونضال وأصبح بمقدورنا أن نتصرف بأمورنا أحرارا ، وصرنا أسياد بلادنا ، فملأ الفرح قلوبنا ، وطربت نفوسنا وقلنا للأيدى التى أرشدتنا فى هذا النضال ! سلمت لنا وللوطن ! وقلنا

للضحايا وللشهداء : ذخروا فى قبوركم ، وفى اجواء خلودكم ، فدماؤكم الذكية لم تهرق رخيصة ، وانما كانت ثمنا غاليا لأنفس ما فى الوجود من نعم واعلاق . انه الاستقلال الذى كان حيا فى نفوسكم ، قبل أن تتحقق فى بلاد أحببتموها ، واستشهدتم فى سبيلها ! . . . . فرحى لكم ولنا ! . . .

والاستقلال يقظة هامة من يقظات الأمم ، ونهضة قوية من نهضاتها ، ولكنه لا يستقر ولا يستمر ويثبت الا باستمرار اليقظة الواعية فى تنبهها وباستمرار النهضة القوية المباركة فى أعمالها ، وباستمرار وعى الأمة القوى فى شبابها ! . . .

فهل تكون هـــذه اليقظة عندنا يقظة واعية ، أم يقظة بلهاء تتصل بأحلام نوم عميق مظلم ؟ . . . وتلك أحلام مزعجة تتكون من كل مافى الأنانية الممقوتة من مظاهر هدامة تتمثل بالطائفية العمياء والطمع والاستئثار ، والاستهتار والدس والتفرقة ! . . . .

أتكون يقظتنا هذه متصلة بذلك الليل المظلم المدلهم ، فتستمد كيانها من أحلام شقائه وذله واستعباده ؟

ألا نخشى اذا استحكمت فينا ، فى عهد النهضة ، عقلية عهد النوم والانحطاط وشعوره متأثرين بتلك الاحلام المزعجة ، أن نعود القهقرى لنوم أطول أمدا ، وأقرب للفناء الأبدى موعدا ؟ . . . .

وما يدرينا أن يقظة كهذه عاودتنا مرارا فى ذلك النوم الطويل ولكنها كانت يقظة بلهاء ، فأبت أحلامنا المزعجة إلا أن تعيدنا الى ذلك النوم المظلم العميق ؟ . . . فهلا نخشى العودة الى نوم مماثل اليوم ؟ . . . .

وانى أخشى اذا عدنا اليه ، لاسمح الله ، أن لا يكون بعدها يقظة أبدا ! . . . إذ أخشى أن يتحقق فينا قوله تعالى : « ان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين » . . . . ولكن لا ! . . .

ان ما نلاحظه اليوم فى شبابنا من يقظة واعية ومن بوادر نهضة محققة ، أيدعون للتفاؤل .

إننا ، أيها الشباب الحبيب ، لانريد أن نعود للنوم ، اننا نريد أن نثبت للعرى أننا قد تفهمنا جيدا قوله : « يأتى على الخلق اصباح وامساء ، ولكن لن يتحقق فينا ، بعداليوم ، قوله : « وكانا لصروف الدهر نساء ! نعم لن ننسى صروف الدهر وماجرته علينا من ويلات ، لتفككنا وتقاعسنا واستسلامنا للدعة والترف . . . . نعم لن ننسى ، ويجب أن لاننسى ! . . وكيف يجوز لنا النسيان ، ونحن نعرف ، بالتجربة والاختبار ، وبالدرس والتعلم ، ان الحياة ترقب أعمالنا وتصرفاتنا ، فتثيب من يحسن ، وتعاقب من يسىء متساهلا بحقوقه ، مستهترا بنواميس الحياة وسننها .

قلت ، وأعيد ، ان الحياة لاتخضع إلا لمن يخضع لنواميسها . ولنعلم ، متأكدين ، انها جد قاسية على من يجهل كنهها ويسير فى ظلام الجهل ، وفى ضلال الطرق الملتوية المعوجة ، وهى أشد قسوة على من يهزأ بها ويتجاهل نواميسها . هى سلم للمتيقظ ، وحرب عوان على من ينام متلهيا بأحلامه .

هى الأيام ! ان جمحت عنادا أذلت كل جبار عنيد
ننام ، ومقلة الاحداث يقظى ولوع الطيف بالركب الهجود

نعم ، ان احداث الأيام يقظى ، وهى ان جمحت عنيدة قاسية . فلنحذر ! . . . ولتكن يقظتنا واعية ! . . . وأعاذنا الله ، جلت حكمته ، من اليقظة البلهاء ! . . .

٤ — صلة الشباب بالأجيال

الاستقلال عظيم رائع ، وهو المثل الأعلى للحيوية الانسانية الصافية فى أوج سموها ، ولكنه ، كالزئبق رجراج مضطرب ، يفلت من أيدى

الأفراد اذا حاولت امساكها بها ، ويحفظ بسهولة اذا وضع فى خزائن محكمة التركيب والاقفال . وما الخزائن بالنسبة الى الاستقلال سوى الأمة بتكتلها وتضامن أفرادها عن وعى صحيح وادراك تام لماضيها وحاضرها ، وللخطط التى تقتضيها حياتها فى المستقبل الذى تضع تصاميمه ، وتهيء له عدته .

الاستقلال ، وما يستلزمه من مبادىء الحرية والتضحية والاخلاص ، لا تحتكر ، لأنها رجراجة مضطربة تفلت فى أيدى الافراد ، ولا تستقر الا فى القلوب التى ترتبط بأربطة المجتمع ، وفى قلوب الشباب خاصة ، لأنه هو المستقبل .

ولكن الشباب لا يعيش وحده ، منعزلا عن كل هيئة أخرى فهو يعيش واقعيا مع جيل سبقه من مواطنيه ، ومن غير مواطنيه ، ونظرياً مع أجيال أسبق من هؤلاء وهؤلاء أيضا ، كما يعيش واقعيا أو نظريا مع جيل يعادل جيله من الاغراب عن وطنه .

فكل شاب على اتصال تام بجيله وبجيل سابق ، وكلما ازدادت ثقافته ونمى استعداده واتسع اطلاعه يصبح أكثر صلة باجيال متباعدة فى القدم وفى المكان ، من مواطنين وأجانب ، وعلى قوة تفاعله مع هذه الاجيال يتوقف واقعيا تحقيق كيانه الاجتماعى ، وكيان أمته .

هنا نقف أمام قضية اجتماعية ، ربما كانت بذاتها مشكلة . أيستسلم الشباب للجيل السابق من الراشدين ، وللاجيال المتباعدة من الآباء والأجداد ، أم يتمرد ؟ . . . ثم ، على أى وجه يجب أن يحدد تفاعله مع الأجيال البعيدة عنه فى الوطن وفى الأهداف الوطنية ؟ مع العلم بأن الثقافة الصحيحة ، والفكرة الانسانية الشاملة ، لاسيما فى هذا العصر ، وفى بلاد مدعوة للقيام برسالة إنسانية ، كبلادنا ، تستدعى استمرار هذا التفاعل وتقويته ؟ . .

إنها مشكلة ، لايحلها فى الحقيقة سوى وعى الشباب فى يقظته أولا وثانيا وثالثا ، ثم وعى الراشدين من الجيل السابق ، وهو يتولى أمر توجيه الجيل الطالع وارشاده .

إننى أخالف من يعتقد أن الجيل السابق هو المسئول الاول عن استمرار النهضة ودرجة قوتها ، لاسيما فى امم حديثة العهد فى الاستقلال ، انه جيل مختضرم فى مثل هذه الحالة ، فى أغلبيته ، إن لم يكن فى مجموعه ، والمجاهدون الأحرار الأصيلون ، يظلون فيه قلائل ، إذ الأكثرية تسير وراء الفكرة ، اما بالانجذاب إلى أولئك المجاهدين الأحرار ، أو خوفا منهم ، أوطمعا ! ولا أعتقد أن يتم ، فى مثل هذه الحالة ، إجماع على تأييد فكرة التحرر واتباع من يجاهد فى سبيلها ، إذ لابد للاسياد القدماء من عبيد يحنون الى عهدهم ، لاسيما اذا سبق وكان هؤلاء العبيد من أصحاب الحظوة والقرب . وهناك من يعلن ذلك ويدافع عنه عند ضعف هيبته الحكم .

ثم هل يظل هؤلاء المجاهدون الأحرار على تحررهم ، أم يصبح لثورة خمرة النصر تأثيرها فى نفوسهم ، اذا لم يكن للترف وحب الزهو والتفرد بالعظمة ، فعله ؟ . . .

فهذه ، وغيرها وغيرها . . . من المظاهر الكثيرة التى يتعذر بيانها وتوضيحها الآن . وربما احتاجت لكتاب خاص بها ، تجعلنا نعتقد أن الجيل الذى يتحقق فى زمنه الاستقلال هو جيل عاجز عن الاحتفاظ به ، اجمالا ، اذا لم يقم الشباب بواجبه . وقيام الشباب بواجبه لا ينتج عن تفاعله مع هذا الجيل وحسب ، وانما يستمد هنا الشباب قوته ، وعزمه ، واتجاهه ، وحسن تقديره للامور ، من جو يخلقه الاستقلال وفكراته الكبرى فى نفوس الشباب ، أى فى قلوبهم وأدمغتهم وجوانحهم ، وعن هذا الجو العابق بأريج الحرية والكرامة والاخاء ، يصدر التوجيه الصحيح والعزم المتين والقوة

السحرية الحافظة ؛ وعن هذا الجو حين تتكون عناصره من :

(١) تفهم عميق لمعنى التكتل والاتحاد ، وقد تغلغل فى أعماقها أريج الحرية .

(٢) من ادراك دقيق صحيح لعظمة التضحية ، تعبق منها روائح العزم والعزيمة .

(٣) من تعاون صادق تتفتح أزهاره البهية عن أطيب روائح الأخاء ؛ تشبق قوى الأمم العظيمة وحضاراتها .

ليس هذا الجو من معطيات الفكر والتفكير ، وان ساعد الفكر على ايجاده ، وليس هو مما تهدى اليه العواطف والشعور والارادة ، وان كان لها ضلع فى تكوينه ، وانما هو يصدر عن ماهو أصدق من الفكر وألطف من الشعور وأقوى من الإرادة ، وأوسع مجالا منها جميعا ، ألا وهى الحياة ، الحياة الانسانية بمعناها الصحيح الأوسع ! . . تلك الحياة التى تتجاوز فى سيرها وسلطانها حدود الفكر والشعور والارادة .

ويعجبنى هنا قول أحد المفكرين اذ يقول : « لا يمكن للفكر أن يدرك كل ماتحويه الحياة ، فوجب أن يتفتح الذهن لكل جديد تمنحنا اياه الحياة والتجربة » .

نعم ، نريد لشبابنا أن يتفتح ذهنه لكل جديد تمنحنا اياه الحياة والتجربة لينطلق فى ميادين العمل انطلاقا حرا ، يرشده العقل ، عقل الحياة الطليق ، ويقويه الاخلاص ، وتسدد خطاه الحكمة .

فى مثل هذا الجو يحقق الشباب كيانه ، ويثبت وجوده ، ويحسن اختيار من يجب أن يتعاون معهم من جيل سابق . واقعيا ، ومن الأجيال السابقة ، روحيا وفكريا . وهكذا يتصل بمن يستطيع الاعتماد عليهم فى تحرره ،

وبهذا الاتصال الوثيق الحر تتحقق فى كيانه معانى العظمة فى الامم . والامر الذى يهمنا هنا تأكيده ، هو أنه من الخطأ الكبير أن يعتقد الشباب أنه يستطيع الاستغناء عن الاجيال السابقة من أمته ، فنهضته منوطة بالمقدار الذى يوثق فيه هذه الصلة ، وبتوفيقه بحسن اختيار من ينقاد اليهم فى تحريره وتنظيم حركاته ، مستمدا الحكمة فى ذلك من النور الذى تقذفه الحياة فى قلبه . فالتضامن الصحيح بين الراشدين فى الجيل السابق ، وبين الشباب فى الجيل الطالع شرط أساسى فى النهضة الصادقة ، والا تذر الفوضى قرونها ، وتعكس النتائج .

وأخوف ما نخاف على الشباب الانخداع ، وأشد من هذا ما نخشاه عليه من الغرور : سواء أكان غرورا بالنفس أم بما فى السلف فى التاريخ . ولله در شوقى القائل :

ودعوا التفاخر بالتراث ، وان غلا
فالمجد كسب ، والزمان عصام
ان الغرور ، اذا تملك أمـــة
كالزهر ، يخفى الموت ، وهو زؤام

فحذار ! حذار ! . . . من الانخداع ! . . .

وحذار ! حذار ! . . . من الغرور ! . . .

فعلى الراشدين حسن تنظيم الشباب وتوجيهه بنصح واخلاص وتضحية !

وعلى الشباب حسن الثقة بمن يختارهم للقيادة . وعليهم حسن الاختيار والانقياد مع التحرر ! . . . فكيف يتم هذا التنظيم ومن يقوم به ؟ . . . .

قد آن لنا الآن أن نحاول بيان حقيقة الشباب وتوضيح مشاكله ، لنستطيع ، على ضوء ذلك أن نرشده لتربية نفسه ونساعده على التفكير بكيانه ومستقبله . فيزداد ما مر وضوحا ، وتتجلى وسائل القيام بتنظيم صحيح تحفظ معها الصلات بين الأجيال دون أن تكون مانعة من التقدم والانطلاق والتحرر ، ومن السير قدما الى الأمام لتأدية رسالة الحياة ! . .

فما هو الشباب ؟ وما هي مشاكله ؟ . . .

obeikandl.com

الفصل الثالث

الشباب في حقيقته

ماهية الشباب ومشاكل الشباب

obeikandl.com

obeikandl.com

خلاصة ماتقدم

زاد تقدم مظاهر المدنية وتأخر الحضارة فى قيمها فى تأزم ازمتى الحياة والمعيشة ، وأصبح لزاما على الشرق والغرب ان يتعاونا ؛ ووجب على الشرق العربى بصورة خاصة ان يفكر برسالته فى الحياة وأن يقوم بتحقيقها فى نفسه ونشرها : وهذا منوط بتنشئة الشباب أولا .

فالشباب وهو الدم الذى تتجدد به حياة الأمة وتقوى ، يؤثر تأثيرا قويا فى سيرها وتقدمها . ونحن إذا كنا نخشى عليه مما يحيط به ، فان خوفنا على الشباب من الشباب نفسه أشد وأقوى ، فلا بد من يقظة واعية تحفظه وتحميه من الانخداع . المستقبل للشباب ونهضته توسس على صلته بالأجيال وعلى درجة يقظته الواعية يتوقف حسن الاتصال بمن تقدم ، وبمن يعاصر وبها يحقق نهضة صحيحة تضمن له المستقبل الذى يرنو اليه . ولكن طريق الوصول ليست معبـــدة . فلا بد من سعى وعمل متواصلين ؟ والعقبات والصعوبات كثيرة ، فلا بد من تذليلها ، والمشاكل عديدة ، ولا بد من حلها .

فكيف تحل هذه المشاكل ، وكيف تذلل تلك الصعوبات وتزال العثرات؟.. على الشباب أن يقوم هو بهذه الأعمال ، فلا بد إذن من أن يربى تربية خاصة ، تعتمد على إدراك تكوينه ، جسميا ونفسيا ، فيجب ان نحاول إدراكه إدراكا صحيحا ، ما أمكن ، قبل كل شىء : فما هو الشباب ، وما هى مشاكله .

١ — ماهية الشباب

لا يزال البحث العلمى فى ماهية الشباب محاولات ، لأن علوم الحياة ، ومنها علم نفس الطفل وعلم نفس الشاب ، حديثة عهد فى دائرة اهتمام العلماء ولعل علم نفس الشباب هو احدثها عهدا .

فكأنى بالانسان ، وقد شغلته الطبيعة ، وهو لا يعلم إلا بالسيطرة عليها ، عن نفسه . فما زال منذ فجر تاريخه ، بل منذ وجد على سطح هذه الأرض يتطلع إلى ما حوله ، ويعمل باحثا منقبا ، يتعرف بالجماد والنبات والحيوان لا لذة المعرفة وحسب ، بل ليتمكن من السيطرة عليها ومن استثمارها لمصلحته وفوائده. منها يتغذى ومنها يكتسى ، ومنها يبنى المسكن ليبيت ويحتمى من اعدائه فى الليل . وما زال يوالى البحث حتى وفق لاكتشاف الكثير من النواميس الطبيعية التى تسيطر على وجود هذه الاشياء وعلى نمو ماهو قابل للنمو منها . فاتخذ النواميس وسيلة . لتثبيت سيطرته ، فأصبح سيد الكائنات ولكن هذه الكائنات التى يسيطر عليها مادة ، وهو يسيطر عليها بقوة نفسه وروحه ، ولا بد للمسيطر عليه من أن ينتقم ، فكيف تنتقم ؟ مازالت سيطرته بارزة ، لا يعارضها معارض ، حتى كان عصر الآلة ، وقد سيطر عليها أيضا مادامت حركتها منوطة بقوته ، أى مادام هو المحرك لها مباشرة ، ولكن تطورت مظاهر المادة وأصبحت تتحرك بالمادة مباشرة بفضل البخار والكهرباء وعندئذ بدأت تنتقم ، إذ عملت على تحويل الانسان لآلة ، فاخذ يخسر من انسانيته بقدر تعلقه بآلته وبانتاجها . هنا بدأت الحضارة تتأخر ، ومظاهر المدنية تتقدم ، حتى شعر بأن سيطرته على المادة يكاد يفلت من يده ، فانتبه لنفسه فوجد أنه سيطر على كل شىء الا على نفسه ، وأنه فى عدم امتلاكه لزمامها يخسر التحكم فى استثمار العالم واستغلاله ، فالمادة ، وقد أصبحت آلة مدمرة يستخدمها فى مقاتلة أخيه فى الانسانية ، ستفتك بالانسان قتلا ماديا ، بعد ان بدأت تفتك به فتكا معنويا ! بتهديم مافيه من قوى نفسية وروحية ، بها تثبت حقيقته .

عندئذ أنتقل لدور جديد ، لم يمض عليه قرن بعد ، سمي بعصر وعي الانسان لذاته ، لشعوره بكيانه النفسي والروحي ، ومحاولته تفهم ذاته . فكانت علوم الحياة ، ومنها علوم النفس . وهذه العلوم ، على اختلافها وتعددها ، لاتزال في دور التكامل ، لايصل العلماء الى أفق من آفاقها ، حتى يظهر لهم آفاق جديدة أكثر بعدا وأشد غموضا وتعقدا .

ولعل ما وصل اليه من معرفة نفسه ومحاولاته السيطرة عليها اخاف المادة الخرساء ، فخشيت أن ينقذ نفسه من براثنها واستعبادها له ، فتفطرت عن قوة أشد فتكا ، الا وهي قوة الذرة . ومن أحدث آفاتها القنبلة الذرية ، التي مازال الانسان في ارتباك وحيرة في أمر السيطرة عليها .

فكان ان ضاعف جهوده في اكتشاف مافي نفسه من قوى ، ليصل إلى قوى خفية في نفسه ، هو يعلم علما سابقا أنها تلاشي بفعلها كل ماتلوح له المادة من وسائل التدمير والافناء ، اذ بهذه القوى تكتمل انسانيته فلا يعود للحروب معنى ويستقر السلام . وأي مفعول يبقى للمادة ، ولقنبلتها الذرية اذا تحققت القيم الانسانية واستقر السلام ؟

فالانسان اليوم في ابان دور وعيه ، وقد كان في الزمن الذي سبق هذا ، أي في دور الصباء والولودية ، مشغولا بما حوله ، فأصبح اليوم مشغولا بنفسه ، يقوم على دراسة الحياة فيها وعلى فهم أسرارها ونواميسها ، ليتسنى له السيطرة عليها ، وبذلك يثبت سيطرته على العالم ، مادة وروحا ، ولا يسيطر الانسان إلا على مايدرك كنهه ويتعرف بالنواميس التي تسيره ، ولذلك قيل : « العالم لمن يراه » . ولا يملك نفسه من لايرى نفسه بنفسه .

فالدراسات التي يقوم بها علماء النفس اليوم ، انما هي دراسات تهدف انقاذ الحضارة ، وانقاذ الانسان من ازمتي الحياة والمعيشة ، لذلك يعتقد العلماء أن علم النفس هو العلم الجدير بأن ينقذ الحضارة من الزوال ، أو

التأخر والانحطاط . لأن النفس هي مركز قيمها ، فيجب ان نراها بعين البصيرة ، ومتى رأيناها امتلكناها ، وبامتلاكها نحتفظ بالقيم ، أي بانسانيتنا وانسانيتنا هي ملجأ الحضارة وحصنها الحصين .

رب قائل يقول ، ولكن علم النفس قديم ، وقد بحث الانسان عن النفس منذ بدأ فلسفته ! هذا صحيح ؛ ولكن البحث كان حدسيا نظريا ، يعتمد على التأمل الذاتي ، وبعض التأملات في أعمال الغير . وقد انحصر في دائرة ظواهر الملكات ، وهي دائرة ضيقة جدا . ولم يكن هناك أي بحث علمي ، هذا عدا أن علم النفس الذي عرف قبل دور الوعي ، وفي اوائله ، هو علم نفس الرجل ، وضمن تلك الدائرة . أما الآن فقد أصبحت الدراسة علمية تعتمد على التجربة والاختبار ، وعلى البحث العلمي والاستقراء ، ويتناول أدوار الحياة جميعها .

ما زال العلماء يعتقدون أن الولد مختصر الرجل ، حتى رفع روسو صوته قائلا : الولد غير الرجـــل . وفي أواخر القرن التاسع عشر أدرك العلماء صحة نظرية روسو ، وبدأوا يدرسون نفسية الولد فوجدوا أن الفرق شاسعا ، في تكوينه النفسي ، بينه وبين الرجل . وأدى البحث الى أن الولد صيرورة ، أي إنسان فيه الاستعدادات الكافية ليصير يوما رجلا ، أما في دور الولودية ، فانه ليس برجل ، ولا بمختصره . وهكذا وجد علم نفس الولد ، وانقلبت نظريات التربية رأسا على عقب ، وأسف الانسان لقرون مرت ، أهمل فيها نفسه ، واهتم بما حوله وحسب ، فكاد يخسر ذاته وها هو صوت سبنسر لا تزال نسمعه ، وهو يقول لمواطنيه في انكلترا ما معناه : « انكم تهتمون بخيولكم أكثر مما تهتمون بأبنائكم » ! وهو يخشى بذلك تأخر مواطنيه .

وهاهو العلم نفسه يثبت الآن أن الشاب ليس غير الرجل وحسب ، بل هو غير الولد أيضا . أثبت العلم أن الشاب ليس رجلا صغيرا ، ولا ولدا كبيرا .

إذا كان الشاب غير الرجل ، وإذا كان غير الولد ، فما هو فى سلم النمو فى الحياة الانسانية .

قلنا إن الولد صيرورة ، أى انه كائن إنسانى فيه الاستعداد ليصير رجلا يوما ، وتكون الرجولة فيه لايتم فى هذا الدور ، وإنما يتم فى دور الشباب فالشباب ان هو الدور الذى تتكون فيه رجولة الرجال ، كما تتكون فيه أنوثة النساء . فهو إذن دور الامكانات فى تكوين المرأة والرجل . فلا يكتمل هذا التكوين قبله ، ولا فى أثنائه ، ولكن فى أواخره ، ومتى اكتمل ، ينتهى دورالشباب ويبدأ دور الأنوثة أوالرجولة عليا وشكليا . وأقصد بقولى عليا ، أى طوعا للتحديد العلمى ، وشكليا ، أى بحسب ظواهر الشكل الجسمانى . والا فالشباب قد يستمر بمعناه الى أبعد من ذلك حتى انه قد يتصل بالشيخوخة ، ويظل له أثر فى دورها ، على ما سيأتى .

وليس من الضرورى حيويا ، أى بالنظر للحياة ونواميسها الخفية التى قد تتجاوز حدود العلم ، على ما سبق وبينا ، عندما قلنا مع ذلك المفكر ، انه يجب أن يكون الذهن متفتحا لكل جديد تمنحنا إياه الحياة والتجربة ، لأن الفكر لا يستطيع أن يدرك كل ما تحويه الحياة ، ، فان دائرة الحياة أوسع من دائرة العلم ، ولو فرض واتسعت دائرة العلم الى القدر الذى عليه دائرة الحياة ، وهى لا نهائية الاتساع والامتداد ، يكمل العلم ، ويجحد العلماء ، ويخشى عليهم وعليه من الزوال ، ما دام البحث لم يعد صالحا لاستخراج معرفة جديدة .

قلت ليس من الضروري حيويا ، أن يتم تكون الرجولة فى هذا الدور ، وعندئذ يظل الانسان ولدا كل حياته ، وان احتفظ برعونة الشباب ، فان الاحتفاظ بها يعود بالانسان القهقرى الى دور الطفولة ، فيصبح رجلا طفلا أى رجلا ، هو بحكم الطفل ، بتفكيره وشعوره وارادته ، وما أكثر الرجال الأطفال ! ... ولعل الشاعر انما عنى ذلك بقوله :

لا يخدعنك ما فى القوم من كبر جسم البغال وأحلام العصافير !...

وما ذلك الا لأن الامكانات لم تتحقق ، وهنا منشأ الأخطار فى هذا الدور ، ولهذا السبب أخذ العلمـــاء يهتمون به بصورة خاصة ، ما داموا يعملون لرفع مستوى الانسانية . فالواجب يقضى أن نجد الوسائل لتحقيق هذه الامكانات ، والا ، فما الفائدة من وجود الرجال الأطفال ، وأى خطر لا تتعرض له الأمة اذا كثر أمثال هؤلاء بين أبنائها ؟

وكيف بك اذا تمكن هؤلاء من قيادة الشعوب ، لفقد الرجال ، أو لقلتهم فلا يتغلبون على الأطفال ، وخاصة اذا كان النظام برلمانيا يعتمد على الأصوات فى الانتخاب ، فيتساوى الرجال بالأطفال ، أو الأطفال بالرجال ؟... فما أصح قول ذلك الخطيب الذى صرخ فى الناس قائلا : يا أشباه الرجال ، ـــ ؟... ولستم برجال ! ... نعم ، قد يشبه الانسان الرجل ، ولا يكونه ! ... وها هو العلم يؤيد ذلك . فليست القضية خيال أديب ، أو تعبير خطيب ، وانما هى حقيقة علمية ، سأحاول زيادة توضيحها . فنرجو أن نســـير معا فى تفهم الحالة الآتية :

كثيرا ما يدهش الآباء ، وجميع الناس ، لتلك المفاجآت المحيرة التى تقع عند دور البلوغ . فبينما يكون الولد هادئا ، وعلى شىء من الرصانة والنضج فى التفكير والشعور والارادة ، ـــ وهو نضج كثيرا ما يذكر بنضج الرجال الكبار ، وتلك الحالة تظهر عادة ، بين الثامنة والثالثة

عشرة — اذا بنا نفاجأ بهذا الولد ، الناضج نوعا ، وقد اختل توازن الحياة فيه ، وأصبح طفلا صغيرا من جديد ، ولكن من نوع آخر .

تستمع الى أم هذا الفتى والى أبيه أو ذويه ، فاذا بك تسمع العبارات الآتية ، أو ما يقرب منها : انه لم يعد يحتمل ! ... كان مطيعا كالغنمة فاذا به اليوم يتمرد كالوحش الكاسر ! ... كان كثير الانتباه والدقة ، فاذا به اليوم كثير الاضطراب ، يستسلم أحيانا للذهول ! .. كان متزنا فى تفكيره وأعماله ، فما باله اليوم قد استولى عليه الطيش ، كالأطفال ، يناقض نفسه فى أقواله وأعماله ، فلا يستقر على رأى ولا يستمر على عمل ؟ ... كأنى به خلق خلقا جديدا ... !

نعم ، انه خلق خلقا جديدا ، وان شئت فقل ولد ولادة ثانية ، ستعقبها ولادة ثالثة بعد هذا الدور القبيح الخطر . دور التناقض ، دور الاضطراب دور الطيش والذهول ! .. أى دور البلوغ .

مسكين الشاب الذى لا يجد وليا يرحمه ! ... ويسدد خطاه بارشاده بحكمة ولين وحزم فى هذا الدور الخطر ! ...

فالشاب هنا عند مفترق الطرق ! ... فاما أن يفسح له مجـــال التفتح والانطلاق ، تفكيرا وشعورا ونزوعا ، ضمن نظام على رحب فتتكون الرجولة فيه تكونا صحيحا يتناسب مع استعداداته الفطرية ، واما أن يكبت ما يبرز من قواه النفسية بالضغط والشدة ، أو أن يترك له الحبل على الغارب عن طريق التدليل والتدليع ، فتنطوى نفسه عندئذ على أحوال دور الصباء أو الولودية ، دون أن تنتقل الى دور الرجولة المتزنة ، بعد أن كبت ما برز فى نفسه من ميول وقوى وحيوية ونشاط ، وهى الصفات الجديرة بأن تجعل منه رجلا حقا . وهكذا تتكون رجولة الأولاد ، مع

جمود واسترخاء ، أو مع تخنث وفساد ، حسب وضع الاهل والمربين ؛ وكثيرا ما نشاهد من أمثال هؤلاء الرجال الاولاد ، على مامر . وبالاحظ أن الاولاد فى نضجهم ، أى فى الدور الاخير من الولودة يميلون كثيرا الى معاشرة أمثال هؤلاء الرجال ، وذلك بحكم التجانس طبعا ، فتراهم يتقربون من الرجل البسيط الساذج الذى لم يخرج عن دور الولودية ، فى حياته ، ويتحببون اليه .

فهذا الشباب ، الذى هو وسط بين الولودة والرجولة ، جدير بالعناية والدرس : فمتى يبدأ ، ومتى ينتهى ، أولا ؟

لا بد هنا من التنبيه الى أن هناك مظهرين للشباب ، شـــباب الجسم وشباب النفس أو الروح ، وهذان المظهران يجتمعان فى زمن ما ، ويفترقان فى زمن آخر ، على اختلاف فى تفهم حقيقة الشباب عند علماء النفس ، وعند علماء الحياة .

فعلم الحياة يرى أن الشباب ، فى أى كائن عضوى ، هو الدور الذى يمتد من الولادة الى اكتمال النمو الجسدى ، أو بتعبير آخر : أنه يمتد ما دام التمثيل يتفوق على الافراز ، فى التغذية . وهذا طبيعى ما دام مفهوم الشباب ملازما للنمو الجسمانى ، وهذا النمو يبدأ حتما ، وحسب ظواهر الحياة ، مع الولادة . وأدواره عند علماء الحياة ثلاثة : دور الطفولة ، دور البلوغ ، دور الفتاء ، فالشاب أول ما يكون طفلا ، ثم مراهقا ، ثم فتى .

أما علماء النفس فيرون الشباب يبدأ مع الولادة الثانية . وقد ألمعنا اليها ، وهو البلوغ ، أى الزمن الذى تبرز فيه مظاهر جديدة من الميول ، الجنسية وغيرها ، والقوى والحيوية والنشاط . والتبدل فى مظاهر الحياة

فى هذا الدور أمر يشاهده الجميع ، حتى انهم كثيرا ماينتظرونه لينقذ الولد من بعض الأمراض ، وهذه الأمراض قد يعلن الطبيب نفسه أنها ستستمر الى البلوغ ، وعندئذ تظهر بوادر الشفاء بالطبيعة ، أى بتطور داخلى يطرأ على حيوية الانسان . وقد اختلف العلماء فى زمن بدء الشباب ، بين الثانية عشرة والثامنة عشرة ، كما اختلفوا فى نهايته بين الرابعة والعشرين والثلاثين والظاهر أن هذا يتعلق ببنية الفرد وبجنسه ونظام حياته ومحيطه الطبيعى ، فانها كلها تؤثر فى تعيين مبدأه ومنتهاه . ومهما يكن من أمر هذا الخلاف ، فاننا نعرف شباب النفس بصفاته الخاصـــة به ، والمميزة له ، وأبرزها التناقض والنزاع .

فالشاب كائن متناقض : فيه كثير من الكبر والغطرسة ، وكثير من السماحة والتواضع ، وعلى الرغم من سيطرة غريزة الاستقلال الذاتى عليه ، تراه فى بعض حالاته مستسلما خانعا ، ينقاد بسهولة ، ويطيع دون تفكير ، وإذا ظهر تفكيره مرتبكا مشوها ، فانك كثيرا ما تجد فيه بريقا من التفكير الصافى ، قد يبلغ ، فى الدقة والاتزان ، درجة تدهش الملاحظين لأطوار الشباب ، ومع شجاعة الشاب واقدامه ، وقد يبلغ درجة المغامرة تراه فى بعض الحالات جبانا خائر العزيمة . ولا تكاد تسر من نشاطه فى عمله حتى يسوءك بتغلب الكسل والتقاعس عليه ، وبينما يتراءى لك نجيبا يرتفع الى أسمى الأهداف والمثل ، وأفضل القيم ، اذا به ينزل الى درك أردأ الحماقات والسخف وأسوإها . فهو مجموعة من الخير والشر . وهذا ما يدهش الآباء ويؤلمهم ، وكثيرا ما يلقى بهم فى أحضان اليأس والقنوط ، ولكن قليلا من التفكير ، والملاحظة والاختبار يعيد الى النفس الطمأنينة ، والأمل .

لا أدعو هؤلاء الرجال المتألمين الى تذكر أحوالهم فى هذا الدور ، فقد يكون ذلك متعذرا على أكثرهم ، وقد يجيب أحدهم قائلا : نريد لأبنائنا أحوالا خيرا من التى كنا عليها ، وإذا لم نوفق بمن يحسن تربيتنا ، فاننا نريد أن نحسن تربية أبنائنا ! ... وقد نجاب أيضا بأن آباءنا شددوا علينا آنئذ وأصلحونا ، ونحن لأعمالهم مقتدون . قد تكثر الأجوبة وتتنوع ، ولكن يندر أن تجد فيها ما يدل على إدراك طبيعة الشباب . ولذلك ترى من يفضل الشدة والكبت ، ومن يذهب مذهب التدليل والدلع ، وكل من المذهبين يضر بالنشء وبصحة نموه وتكونه .

قلت : لا أدعو هؤلاء الرجال الى تذكر أحوالهم فى ذلك الدور ، فانا أدعوهم لملاحظة أنفسهم الآن ، لا سيما اذا كانوا ممن تحققت فيهم الرجولة على ما يدعون . ألا يجدون هذا التناقض فى نفوسهم الى هذا اليوم ؟ انهم يجدونه لا سيما اذا كانت رجولتهم فى تكاملها ؛ اذ المعروف علميا أن أكثر الرجال انسانية ، هم أكثرهم تناقضا ! ...

والفرق بين التناقض فى الشباب وبينه فى الرجـــولة ، انه فى الرجال مركز متوازن ، فالرجل الرجل اذا كان كريما بماله فهو جد بخيل بكرامته ، واذا ثار على من يتعرض لاستقلاله وتمرد ، أيا كان هذا الانسان ، فانك تراه يخضع لابنه الصغير ، مثلا ، ولا يجرأ على أن يخالف له أمر ، واذا عجز عن تلبية رغباته تألم . واذا كان شجاعا يضحى بحياته فى سبيل مثله العليا ووطنه ؛ فانك تراه جبانا عن القيام بأى عمل يسىء الى سمعته ، أو يمس كرامته ... الخ . فالتناقض واقعى الوجود فى الرجال ، ولكنه ، على ما أبنا ، مركز متوازن ، أى يعتمد على حكمة وضع الشىء فى محله .

أما عند الشباب ، فهذا التناقض مضطرب لا توازن فيه ، وظواهره موقتة ليس لها استمرار ولا استقرار . وان الشاب ليدهشك حين ينتقل بسرعة غريبة من تطرف الى تطرف معاكس ، ومن افراط الى تفريط ، وخاصة فى الدور الأول من شبابه ؛ أى دور البلوغ ، أو دور الجنون اذا شئت ، أى جنون الشباب . وأرى أن يطلق على هذا الدور اسم دور الفتاه ، تمييزا له عن الدور الثانى من الشباب ، حين يبدأ الشاب بالتقرب من الاتزان والتركيز ، وهما صفتان لا أثر لهما فى دور الفتاه مطلقا .

فى هذا الدور يسيطر على الفتى خيال حاد وانفعال شـــديد وتحمس مفرط ، ولذلك تراه فى نزاع دائم مع من يحيط به . انه يريد أن يكيف محيطه حسب ميوله ونزوعه وتصرفاته ، ويأبى المحيط الا أن يجتذبه اليه ويكيفه حسب تقاليده وما اختار من أنواع السلوك وشتى العقائد ومختلف الآراء والأوضاع . فهذا النزاع من أبرز المظاهر المميزة للشباب ، وخاصة فى دوره الأول ، أى فى دور الفتاه ، على حد قول الشاعر :

قد غدا الشيب فى المفارق شاعا واكتسى الرأس من بياض قناعا

ثم ولى الشباب ، إلا قليلا ثم يأبى القليل ، الا النزاعا !

فشاعرنا هذا يعرفك الشباب بالنزاع ، ويستدل بوجوده على وجود ، بقية من الشباب ، على الرغم من مظاهر الشيخوخة . والحقيقة أن الفرق بين الشباب والشيخوخة يتلخص فى أن الشباب ينازع لأنه مفعم بالآمال ، يتفاعل مع محيطه محاولا تكييفه حسب مايتصور من أحوال واصلاحات يأمل تحقيقها . أما الشيخ فقد فقد كل امل ، فهو مستسلم ينتظر يوم راحته الابدية ، وإذا غذاه أى امل ، فهو امل نعيم الآخره . فاذا بدرت بادرة نزاع فى الشيخ مع محيطه نستدل بها على وجود شىء من روح الشباب ، مشرق فى

نفسه القوية فى شيخوخته . ولذلك اجاز بعضهم أن يمتد دور الشباب النفسى إلى ما بعد الثلاثين ، حتى إلى الشيخوخة ، فيظل التفاعل يفعل فعله ، ويظل الانسان فى تطور الى أن يفارق الحياة ، وهؤلاء هم الرجال الافذاذ حقا . وهؤلاء هم الذين يفتخر بالسير وراءهم ، والانضواء تحت لوائهم ، اذا كانوا مخلصين حقا للمثل العليا ، والقيم الروحية ، انهم يصلحون لقيادة الشباب الطالع وارشاده . انهم يصلحون للقيادة فى كهولتهم وشيخوختهم ، ولا يجوز للشباب الناهض ان يضيعهم بغروره ، أو أن يخسر الاستفادة منهم ، لأن همة الشباب وما تقتضيه من نزوع ونزاع لا تزال تنير جوانب قلوبهم اللدنة فتملأها بفيض أنوار شمس الشباب وروح التجدد فيه . فهنيأ لأمة يكثر فيها أمثال هؤلاء . لأنها تجد القادة الصالحين لشباب متوثب متحمس ، يريد الصلاح والاصلاح ! . . . وبذلك يتسنى للشباب أن يتسلم من الجيل السابق تبعات الحياة وإمكانات بناء المستقبل على أسس سليمة متينة ! . . . ويحق لنا أن نقول : بارك الله فى أيد سلمت ، وفى أيد تسلمت ! . . .

ولعل هذا هو الذى أراده غوته عندما قال : « يجب أن نعرض على الفتى لوحة رائعة من مشاهد الراشدين ، وهم يمارسون الفضائل ؛ كما يجب أن نضع أمام نظر الشيخ لوحة الشباب ، ليتمكن كل منهما من التمتع بالنظر إلى الدائرة السرمدية ، وهكذا ينتهى الانسان وهو فى فعالية الحياة » ! .

نعم يجب أن ينتهى الانسان وهو فى فعالية الحياة ويؤيد ذلك ما ورد فى الحديث الشريف : « خذ من شبابك لهرمك » .

فالشباب ، بروحه ونشاطه وعزيمته ومرحه ، يرافق الانسان فى جميع أدوار الرجولة ، وفى هرمها أيضا ، إذا كانت الروح الانسانية الصحيحة قد تحققت فى نفسه واكتملت رجولته . الشباب شعلة داخلية لا تطفأ مادام

للانسان مثل أعلى فى حياته ، ولا آفة الشباب كاليأس والقنوط ، فالشباب كله أمل ! . . . وهو فى تحققه يكافح عن مثله العليا مهما كانت الآلام والأخطار . وإلا فهى شيخوخة فى الشباب ، أو بالأحرى هرم . فالشباب الذى ليس له مثل أعلى يكافح دونه ، هو كائن هرم فى الحقيقة ، ولذلك تراه يستولى عليه الخمول والجبن والاسترخاء والاستهتار . والشباب الحق تتجلى فيه القوة والبأس والمنعة ، ويتحلى من يحمل شعلته المقدسة بالمروءة والفعالية والنشاط والنجدة ، ومع طراوة العواطف نرى فى مآتى الشباب أباء وعنفوانا وحماسة . وهو فى صميم ذاته يميل الى التفتح والانبساط والانطلاق ، ولكن ميله هذا كثيرا مايتحول إلى زهو ومباهرة واعجاب ، تنقلب جميعها الى ضجيج لامعنى له .

وإذا كان الشباب متناقضا فى اتجاهاته وتصرفاته ، انفعاليا بشعوره ، ينازع مايحيط به رغبة فى تكييفه حسب رغبته ومشيئته ، فان الاختبار العلمى قد أثبت أن الشاب يجد ، هو ذاته ، مافى نفسه من هذه الأحوال ، ويشعر انها موقتة ، وان عواطفه غير مكتملة . لذلك تراه فى كثير من الأوقات يهتم اهتماما صادقا بأن يكون جديا فى أقواله وفى أعماله ، ليركز هذا التناقض وليخضع انفعاله وما اليه من مظاهر لمبدأ الاتزان . وإذا كنت تراه يلهو ويلعب أحيانا ، فانه يتخذ فى ذلك وضع من يحاول القيام بتمرين ، لايفكر بالعودة اليه .

وفى هذه المحاولات تبدر منه كثير من الهفوات ، فيتألم منه الآباء والأهل ويعتقدونه قد ارتمى فى بؤرة الفساد . والفساد فى نظرهم عادة كل مايخالف مألوفهم وتفكيرهم وشعورهم . على أن الحقيقة هو أن هذا الشاب يتفاعل مع محيطه ، ويهيىء نفسه لمستقبل يتبناه ، وقد يخالف ما عليه أولياؤه

فى بعض مظاهر الحياة . ولذلك لايجوز أن نعتبر كل مايخالف مألوفهم من اتجاهاته وأعماله فسادا .

وهو قد يقع فى بعض الهفوات ، ولا بد من ان يقع ، وفى كثير منها ، واقتراف الهفوات لايعنى الفساد دائما . فقد يكون من محاولاته فى التجربة والتمرين للاختبار ، حتى تتحقق الأمور فى نفسه ، فيركز ما يظهر عليه من التشويش والارتباك فى تناقضه ، ويوازن انفعالاته ، وقد يكون السبب جهله بنتائج الأمور ، فلا مندوحة لنا من أن نبصره بتوضيح حقائق الأعمال ونتائجها .

ان الفساد لايتحقق فى نفس الشاب الا اذا انصرف اليه بكليته ، وأصبح اصراره عليه عنادا ، بعد أن يستنير بحقائق الأمور . وإلا فما دام لايصر على فعله ، بل يفكر فى تركه ، شاعرا انها حالات موقتة فلا يجوز الصاق تهمة الفساد به ، وانما يعبر عن ذلك بالتشويش والارتباك ، بسبب الجهل أو لعدم حصول القناعة النفسية . فلو فرضنا أنه ارتكب هفوة السرقة مثلا فيجوز أن لايكون مقتنعا فى نفسه بحق ملكية الغير ، وخاصة إذا كان المسروق منه والده أو والدته ، وهذه هى الحالة الغالبة ، اذ يندر أن يجرأ الشاب على سرقة الغريب عنه ، إلا إذا كان سيء السلوك والتربية منذ طفولته — فانه قد يكون معتقدا أن ماعلك الوالد أو الوالدة هو له ، وان لافرق بينه وبينهم ، وربما يحجزون المال عنه خوفا من اسرافه فحسب ، . . . . ولعله يفعل ذلك عن انفعال لحاجة له بالمال دون اى تفكير فى الأمر ، ولا تصميم بالمعنى الصحيح . . . الخ من التعليلات التى تتفق مع سنه . فليكن الأولياء ، ومن يعنى بتربية الشباب حسنى النية وليحذروا التسرع باتهام الشاب بالفساد ، فان هذا التسرع قد يفسده . فالفساد ليس فى طبعه والهفوات

لاتفسر بالفساد ، وانما هى امكان ، مادام الشباب مجموعة إمكانات ، يخشى ان يتحقق اذا لم يحسن المربون توجيهه ، كما نخشى ان تتحقق كثير من الامكانات على الوجه الذى لا نرغب فيه ، وهنا مجال واسع للحذر وللحكمة ويصح ان نتخذ مامر دليلا على صحة رأى احد العلماء المربين فى قوله : « اذا كان هناك موضوع غير معين ، تصلح لدراسته قاعدة غير معينة ، فهو الشباب لأنه ليس ، فى اعماله عمل ، ولا فى حالاته ، حالة ، سواء اكانت جسمية ام نفسية ، على الأخص ـ قد اتخذت شكلا معينا . . . . انه فى سن التجريب والمحاولات » .

ولعله ، لهذا السبب ، يظهر كثير الذهول والاحلام ، إذ يريد ان يعين لمستقبله صورة واضحة ، فلا ينجح ، فيحاول تصوير حالته لنفسه فلا يحصل على صورة واضحة . وكم تذهب بالآباء والأولياء الظنون فى هذه الحالة ، والشاب المسكين برىء ، لانه مهموك بوضع الخطط والتصاميم لمستقبله ، وهو يحاول تفهم ذاته ، لذلك تراه فى هذه الحالة اشد حاجة الى مرشد عذير منه الى مراقب لوام ! . . انه أشد حاجة الى الرحمة والحنو منه الى الشدة والقسوة ! . . .

واذا بدرت منه بوادر تمرد فلا تحاول كبتها ، ففى هذه البادرة كل الخير الشاب متمرد بالضرورة ، وقد سبق وبينا مبدأ النزاع فى نفسه ، وتمرده هذا دليل بدء تحقق شخصيته . وبتحقق شخصيته يبدأ فى نفسه التفاعل النفسى لتركيز متناقضاته ، وللحصول على الاتزان فى تصرفاته وانفعالاته . انه الدور الذى يبدأ فيه بالشعور بكيانه كانسان ، وبذاتيه كانسان مستقل ويصبح بمقدوره أن يقول فعلا : لا ! . . . ومتى قالها يجب ان تنفرج اسارير الوجه عند الاولياء والمربين ، اذ بذلك يتهيأ ليكون رجلا .

إننا نرحب بروح التمرد تبرز فى الشاب ، فهى التى تنقله إلى الرجولة ، إذا أحسنا استعمالها .

وإذا رجعنا بروح التمرد فيجب أن نحذر العناد ، والفرق بين التمرد والعناد بعيد المدى . فالتمرد يتحقق فى امتناع الانسان عن الموافقة على مالا يقتنع بصحته ، وفى امتناعه عن القيام بأى عمل لا تتحقق لديه فائدته ، وفى امتناعه عن الخضوع لأى إنسان لا يحترمه .

وأما العناد فهو امتناع الانسان عن كل ما مر فى الأحوال المذكورة ، لا للاسباب ذاتها ، بل لأنه سبق وقال : لا ؛ فهو يقف عندها ولو ثبت له أنه على خطأ . والتمرد إذا تحول لعناد يصبح خطرا على تكون الرجولة فى الشباب ، وهذا ما تجب ملاحظته .

فلا نكبت التمرد ، بل نتفهمه ونوجهه ، ونحذر انقلابه إلى عناد .

لعل هذه الفكرات العامة عن ماهية الشباب تساعدنا على أن نتصور شيئا من حقيقة هذا الدور الغامض من أدوار الانسان فى نموه ، فتصبح أمامنا صورة توضح لنا ، على ما بها من إبهام طبيعى ، توضيحا نوعيا ، أحوال الشباب فى تناقضه وانفعاله ونزاعه ، وهفواته وتمرده ، وفى محاولاته وتمارينه وفى جده ولعبه ؛ وهى صورة تساعدنا ، مع كل من فى الفصول السابقة ، على تصور مشاكله .

فما هى هذه المشاكل ؟ . . .

٢ — مشاكل الشباب

مشاكل الشباب كثيرة فى عددها ، معقدة فى اشكالها ، غامضة فى مظاهرها ، وهى مشاكل تعرض كل يوم ، وتهز قلوب الشباب ومشاعرهم وتؤثر فى نفوس الآباء وتحيرهم ، فى كل حين .

وأول هذه المشاكل، وأبرزها ، هي مشكلته في نفسه، مشكلته في تكون ذاته ، وما فيها من تناقض وانفعال ونزوع ونزاع . انه كائن حي يريد أن يتجاوز حدود ذاته ، فينتقل من الغموض إلى الوضوح ، ومن الاضطراب والارتباك ، الى الهدوء والطمأنينة ، ومن الصخب والضجيج والطيش إلى السكون والرصانة ، وبكلمة واحدة ، يريد أن يتجاوز دور الطفولة الى دور الرجولة ، يريد أن يصبح رجلا ، كان في طفولته صيرورة ، وهو الآن في دور إمكان تحقيق هذه الصيرورة ، وصوت داخلي صادر من أعماق أعماق النفس يناديه ويدعوه لتحقيق ذاته رجلا ، وإلا فقد حقيقة انسانيته ، إذا أصبح جسمه كجسم الرجال ، وبقيت نفسه طفلة إلى الأبد .

إنه لن يصبح رجلا إذا لم يكن نموه خاضعا لناموس التكامل الكلي ، في نفسه أولا ، فتبرز نفسه كلها متكاملة ، دون أن تكبت أي قوة من قواه النفسية قوة أخرى ، ثم في تصوره للاشياء ، فلا يتصورها جزئيا ، فيصبح تذكره لها جزئيا أيضا ، وفي كبت بعض القوى ، وفي التذكرات الجزئية ، ينشأ الوهم ، وتتكون الأوهام وتتكثر . وتلك حالة الانسان البدائي ، اذ يكون من الجزء كلا ، تصدر عنه الخرافات والشعوذات والأوهام ، فيغرق في عالم الاحلام والاماني البعيدة التحقيق ، فلذته في غيبوبته ، وصحوه يثير الآلام النفسية ويبعث في ذاته الحزن والانكماش . وما رأيك في انسان لا يلذ له الا أن يغيب عن ذاته ؟ أتتصور لهذا الكائن الحي أي وجود انساني ، أو أي كيان نفسي صحيح ؟ . . .

هنا تظهر مشكلته النفسية ، وقد تكون فؤادية ، أي في اللاوعي ، بل هي فؤادية ، جزئيا ان لم تكن كليا . ولذلك كان أثرها في ارتباكه واضطرابه أشد وأقوى .

انه يريد أن يصبح رجلا ، ولكنه لن يكونه الا اذا تخلص من أوهام الانسان البدائى ، أى من أوهام التصورات الجزئية ، وما ينتج عنها من أحلام كاذبة وأمان خادعة ، ولن يتم له ذلك الا اذا أصبح يميز بين الحلم والوهم وبين الواقع والحقيقة . يجب أن يتصل بالواقع وبالحقيقة ، فمن يساعده على ذلك ؟

أهله وذووه ؟ ... وهل هم أكثر اتصالا منه بالواقع وبالحقيقة ؟ ان يكن ذلك ، سهل الامر عليه ، وأصبح جوه العائلى مساعدا له على اصلاح تصوراته . والا ، فالمشكلة تزداد شدة ، وتستحكم أزمتها ، اذ تتخذ شكلا جديدا باتصالها بالمحيط ، تخرج عن أن تكون مشكلة ذاتية وحسب ، فتصبح ذات وجهين : وجه ذاتى داخلى ، حين كان بروزها ذاتيا فى النفس ، ووجه خارجى لاعلاقة للذات فى تكوينه ، بل هو متكون فى الخارج ، ويطفو على ذاتنا ، بتأثيره ، فيصبح الشاب المسكين تجاه مشكلتين ، مشكلته فى ذاته ، وتصوراته جزئية بتأثير ما فى نفسه من انفعال وطيش وتسرع ، ومشكلته فى محيطه ، لأنه محيط غارق فى عالم الوهم والخيال ، أى فى عالم التصورات الجزئية ، فهو يشجع الحالة الذاتية ويغذيها ، ويضطر بذلك لأن يتأخر عن ذاته ، عوضا من أن يتجاوزها ، كما يجب . فتزداد مشكلته فى نفسه تعقدا وغموضا ، وتستمر انسانيته ضحية الجهل ، أو الجاهلية .

والجهل أقل خطرا على الانسان من الجاهلية . والفرق بينهما ، ان الجهل بذاته شىء بسيط ، وهو عدم المعرفة ، والجاهل يعرف عادة جهله ، فلا يمتنع عن ارشاد العلماء .

أما الجاهلى فهو الذى ينقاد لانفعاله ويخضع لهواه ، وقد يكون متعلما وذكيا ، فلا صلة بين تصرفاته وبين معرفته ، الا بمقدار ما تطاوع معرفته

انفعاله . يستولى على نفسه الغضب والانفعال ، فاذا غضب أو انفعل ، فلا تسل عما يفعل ، قد يرتكب فى هذه الحالة جناية القتل ، ولا يذهبن بك الظن ان عمله هذا يدخل فى باب الشجاعة ، فانه لا يكاد يفعل حتى يندم ، وهو فى اقدامه الجاهلى هذا ، أجبن من أن يشترك فى معركة حربية ، غرضها الدفاع عن الوطن وحمـــاية الذمار ، لا يؤثر فى نفسه شرف المقصد ، وانما هو الانفعال ونزوات النفس ، وكثيرا ما تكون الأسباب تافهة أو غير شريفة . ولا يندر أن نجد بيننا القوالون ، من أدباء وعلماء ، من الذين يحسنون القول ، وهم فى أعمالهم للهوى والانفعال يخضعون . هم فى تصرفاتهم عبيد لنزوات نفوسهم ، مهما حقرت وتفهت . يكلمك فى المثل العليا حتى يذهلك ، ثم تراه يحارب المثل نفسها لفائدة ، كثيرا ما تكون أحقر منه وهذا ما عناه القول المأثور : أعوذ بالله من عالم اللسان جاهل القلب .

هذه صورة مصغرة عن جاهليتنا اليوم ، ونحن فى عصر العلم والنور والثقافة والتحرير ، وتصدق هذه على الأمم ، كما تصدق على الأفراد . ألا نشاهد كل يوم أعمالا تدل على أن أمما تفتخر بثقافتها العالية ، وحضارتها السامية ، تتصرف مع غيرها تصرف انفعال ، استجابة لمصلحة مادية ، أو تلبية لمطامع فى التوسع والاستعمار ، ضاربة بكل ما فى المثل العليا ، التى تدعيها من سمو عرض الحائط ؟ . . . إنها جاهلية ، يا أخى ! قلها ولا تخف . الانسانية اليوم فى جاهلية عمياء ، يزيدها عمى ما تفتخر به من علوم وثقافة بل قل من علوم ومعارف وادعاء للثقافة ، لأن الثقافة الصحيحة لا تلتقى مع الجاهلية مطلقا ، إن الثقافة الصحيحة إنما تتحقق من أثرها فى النفوس ومظاهرها فى المجتمع ، وفى العلاقات بين الأمم .

ان الانسانية اليوم فى جاهلية ، أشرف منها جاهلية العرب قبل الاسلام وأنبل . لأن تلك الجاهلية كانت تحافظ على العهود والمواثيق وكان الناس

فيما يحترمون ذاتهم ، باحترام أقوالهم . أما اليوم فالشاطر النجيب من يتقن فن خداع الناس ، ولو كانوا مواطنيه ، أو أهله وذويه ، ويتمرن على الكذب ولو على نفسه ، ويحسن الاحتيال ، ولو على الأصدقاء والعيال .

وجاهلية العرب ، مع مافيها من هذه الصفات الذميمة ، كانت جاهلية أيضا ، لأنها كانت تصدر عن الانفعال ، وتستجيب لنزوات النفس وأنانية الأفراد . ولذلك كانت سيئاتها أكثر من حسناتها فجاءت رسالة الاسلام وعملت على تعديلها ، فانقلب العرب الانفعاليون الأنانيون انسانيين يرفعون لواء الحضارة عاليا وينشرونها فى العالم .

والبشرية اليوم بحاجة لرسالة انسانية تنتقل بها من جاهليتها الحاضرة إلى حضارة صحيحة ، كثيرا ما يفكر بها المفكرون ، واليها يتجه العلماء الانسانيون فى ابحاثهم ؛ وهذه هى الرسالة التى سبق وقلنا انه على الشرق العربى ، بجميع عناصره ـ مسيحيا ومسلما ـ القيام باعبائها ، وقد سبق له أن قام بهذا العبء فى تاريخه خير قيام .

والقضية فى الرسالات هى نقل أمة ، أو أمم ، من حالة الجاهلية التى لمحنا اليها ، إلى حالة التركيز والاتزان .

لذلك لانكون قد خرجنا عن موضوعنا فى محاولة توسعنا قليلا فى بحث الجاهلية وحقيقتها ، فان مشكلة الشباب الأساسية هى فى مشكلة جاهليته فى نفسه ـ تصرفات تخضع للانفعال ، وأعمال ، هى استجابات لنزوات النفس ـ وفى مشكلة حلها ، لينتقل بوثوق إلى الرجولة الحقة ، أو الأنوثة الصحيحة أى الى حالتى التركيز والاتزان ، فى المرأة الرصينة والرجل الرزين .

ومن هنا تنشأ مشاكله المتعددة المتنوعة مع مجتمعه وما يحيط به من جماد ونبات وحيوان . هى مشاكله فى نزاعه مع هؤلاء جميعا ، انه يريد

تكييف كل الوجود حسب تصوراته وأهوائه ، ولكن الوجود لا يستجيب ، انه يشعر فى قرارة نفسه ان اشكال الحياة القديمة ، لا تتلاءم مع حاجات نفسه الداخلية ، وحوله أناس يحيطون به وهم شديدو المحافظة على القديم ، لأنه قديم ، هذه حاله بين أهله وذويه وعشرائه ، ومربيه ورؤسائه ، فهل يكون من ذلك كله سوى مشاكل تتوالى ولا تتناهى ؟ . . . وقد يكون مصيبا ، وقد يكون مخطئا ، فكيف يستكشف خطأه ، ومن يساعده على ذلك ! وتتلخص المشاكل كلها هنا بمشكلة واحدة كبرى ، الا وهى تفاعله مع محيطه ، ومجتمعه ، وكيفية تكونه وفقا لما يقتضيه المجتمع فى حاجاته وأهدافه وآماله ، ولما تستلزمه حياته الخاصة من تصرفات وسلوك وأعمال ، ولما يستوجبه التقدم والرقى من تجدد وتطور ، فى التفكير والشعور ، وفى أساليب العمل . فكيف يجب أن يتم هذا التكييف تطوريا ، لا ثوريا ؟ هذا ما سنجيب عليه فى الفصل القادم .

والمهم الآن ان نستعرض المشاكل اجمالا ، فنجدها فيما ذكرنا آنفا ، وفيما سبق ذكره فى الفصلين السابقين من أزمات فى المعيشة وفى الحياة ، وفى المدنية وفى الحضارة ، وفى المجتمع ، فيتعرض الشاب بطبيعة وضعه للتفكير فى حل مشكلة معيشته ، واختيار العمل الذى يتلاءم مع استعداده ويهيء له العيش الهنيء الشريف ، فهل تتاح له الفرص ليحل هذه المشكلة على ضوء نور نفسيته ، وحسب قواه الجسمية والفكرية والخلقية ، وميله الشخصى الى ما يحب بفطرته من الأعمال ، أم يجبر على اختيار ما يفضله أبوه أو أمه ، أو ذووه ؟ ! ولعله يضطر لاختيار ما لا يتلاءم مع أهليته لأن الوسائل المؤدية لارضاء استعداداته مفقودة ، وهو قد رأى النور فى مجتمع لا يهتم بأمر الشباب وبأمر مستقبلهم ، ولو بقسط صغير من القدر الذى يهتم به بعض الذوات بأمر ارضاء ميولهم فى تربية الخيول أو الكلاب أو الهرة ! . . .

غريب أمر رجالاتنا اليوم . فانهم على ثرائهم وثقافتهم ، وعلى ما يتشدقون به من ادعاء الحمية الوطنية ، والثقافة الانسانية ، والاخلاص للمثل والقيم ، وعلى الرغم من كثرة ما يبحثون بهذه المواضيع ويكتبون ، يجعلون أمر تربية النشء وتوجيه الشباب على هامش مناهجهم في الحياة ، هذا اذا أعاروها اهتمامهم وعنايتهم . ويكون الاهتمام منحصرا في أمر التعليم ، وبأساليبه التقليدية . اذا أولعنا بكلب ، أو هرة ، أو عصفور ، فانك ترى المولع فينا يهتم بدرس كل ما يتعلق بموضوع ولعه ، باحثا منقبا عن أحدث الوسائل ، وأنجع الطرق لايصاله ، في نموه وشكل تصرفه في حركاته ، الى أوج الكمال في استعداداته النوعية .

اما النشء ، واما الشباب ، فوا أسفاه ! ... فلا يفكر أحد في اصلاحه حسب المستقبل الذي ينتظره ، ولا في صلاحه ، في العمل الذي يليق به أن يختاره ، ولولا نور الفطرة في نفس الشاب ، يساعده في كثير من الأحيان على مواقع الخطى ، لظل جمادا لا يتحرك ، أو آلة تسير حسب إرادة محركها وحسب ! مسكين نشؤنا ! وهو اجدر ما يكون بالرحمة والشفقة ، عند ما يصبح في شبابه ! . . . فانه لم يوفق لأن يولع به من بيدهم القدرة على انقاذه من براثن الارتباك والاضطراب ، والضلال والفساد ، ولعهم بالكلب او الهر ، او كولعهم بالنبات ، ازهاره واثماره !

فهذه الاحوال وأمثالها من أشد بواعث المشاكل في المجتمع عامة ، وفي الشباب خاصة .

فما بالك اذا ضممت اليها مشاكل الحب ، وما تحاك حوله من أضاليل ؛ ومشاكل العشراء والاصدقاء ، وما يستتبعها من قال وقيل ، ومشاكل المدارس وما في أنظمها من تضييق أو استهتار ، ومشاكل الأساتذة وما قد

يكون فى طرقهم من تحقيد مهدد قلب الشباب بالانهيار ، وما بالك بالمناهج وما فيها من حشو المواد التى لاصلة لها بحياة الشاب ، إلا بما قد تفرض من حاجته اليها فى المستقبل ، ومن يدرس ؟ . . . وأى مشكلة أشد وطأة على النفس من أن يحاول الشاب تكوين مستقبله فى حاضره ، فيعيش فى غير زمنه . انه قلب للأوضاع ، ضحيته شباب الانسان ، اذا لم يكن فى الشاب تمرد نفسى ، يهزأ بالشهادة ، التى تزيد الطين بلة فى مشاكل المدرسة ، لأنها تريد أن يعيش الشاب حياته ، فى نضارة شبابه ، لأجل هذه الورقة ، التى يجب أن تكون قصده فى مسيره ، والتى عليها يجب أن يعتمد فى تحقيق مستقبله ، أواه ! على شباب يعيش للشهادة ! . . . فانه عندها ستقف جهوده ، وبها سيحصر مستقبله ! . . . ولا يستطيع الانسان إلا أن يأسف على أمة تضيع شباب نشئها فى مثل هذه السفاسف .

دعوا الشباب ينموا نموه الطبيعى الحر ، فى تكوين حياته الشخصية ، ولتكن دروسه ومناهجها ، وامتحاناته ، وشهاداتها ، مساعدة له على هذا التكون ، لأنه كان شرطا أساسيا فى وجود العلوم العقلية ، فالعلوم العقلية نفسها لم تتكون إلا بالنمو الطبيعى الحر ، فما بالنا نطالب الشباب بأن ينمو للعلم ، على غير الطريقة التى نمى بها العلم نفسه ؟ . . . أنفعل ذلك أو ندعى حب أبنائنا الذين نعقد عليهم كل الآمال ؟ . . .

ثم هل نستغرب ، بعد أن أدركنا مجمل المشاكل التى يتعرض لسوء تأثيراتها الشباب ، ان نجد فى نفسه هذه الارتباكات والاضطرابات التى قد تؤثر فى صحته فتظهر بسببها عليه أعراض عصبية قد تتحول الى هستريا أو نوراستنى ، فى الشابات وفى الشبان ، لكثرة ما تتراكم فى نفوسهم من هموم ، تهز الاعصاب من شدة القلق ؟ . .

ومما لا شك فيه ان الشاب ، كما سبق وأوضحنا فى بدء هذا البحث هو بذاته مشكلة مشاكله النفسية ، لأنه يضع مشاكله فى قلبه . فما أشبهه ،

في هذه الحالة ، بذلك القرد الذي يصاد على طريقة الزنوج ، فان هؤلاء يستخدمون في إمساك القرود ، سالمة ، طريقة فذة يطبقونها على الشكل الآتي : يطلقون بأغصان الأشجار التي يأتيها القرود أكياسا من الجلد ملأى بالأرز ، الطعام المفضل عندها ، ولا يتركون في الكيس سوى فتحة صغيرة متناسبة مع حجم يد القرد . فاذا جاء هذا مديده في الكيس وملأ قبضته بالأرز ، فتجمع قبضته الملأى بالارز ويتعذر عليه اخراجها ، فيبدوا عليه الاضطراب والارتباك اللذين يعبر عنهما بالصراخ الشديد المتواصل ، فيأتي الزنجي ويقبض عليه متلبسا بجريمته .

وهكذا يتمكن الزنجي من القبض على القرد ، لأنه لم يشأ ان يترك الارز ليتخلص منه وينقذ نفسه ، كما انه لم يدرك انه كان بامكانه أن يقلب الكيس فيأكل الارز بسهولة .

وهذه هي حالة الشباب ، فان مشاكلهم تملأ قلوبهم ، فيتعذر عليهم التنفس بملء رئتيهم ، فتظهر عليهم أعراض الامراض النفسية ، ويمكنون الحياة من إلقائهم باسرها . ولو انهم فكروا فيها وتروووا في تفهم أسباب اضطرابهم لوجدوا مجالات واسعة للتخلص من ضغطها على نفوسهم ، وللتحرر من أسرها لنشاطهم وحيويتهم . وما عليهم الا أن يخرجوا هذه المشاكل من قلوبهم ليضعوها أمام أعينهم ، وبذلك يواجهون الحياة وجها لوجه .

وهكذا ، فاننا مع اعتقادنا بالتبعة تلقى على المجتمع ورجاله في تنشئة الشباب ، نرى من الانصاف أن نقول للشباب : ان قسما كبيرا من هذه التبعة تلقى على عاتقك أنت ، فتدبر أمرك ! . . .

ولوضع التبعات في مواضعها ، في أمر تربية الشباب وتوجيهه ، خصصنا ما بقي من فصول في هذا الكتاب .

الفصل الرابع

الشباب في خيبتهم

ادعاء وغرور   لم نطالب بحرية التربية

الحرية والفوضى   الثقة في التربية

الفؤاد

obeikandl.com

خلاصة ما تقدم

أزمة الحياة أشد وطأة على الانسانية والأمم من أزمة المعيشة ، وهذه فى الحقيقة من نتائج تلك . فكل ظاهرة من ظواهر الحياة انما تتصل بانسانية الانسان ، أى بالحضارة التى ترتكز على التفكير والشعور والنزوع فى صميم نفسه المنسجمة مع المجتمع القريب ، الوطن ، والمتباعد بالامتداد ، الانسانية أو البشرية مع ما يتعلق بها من الكائنات ، حية أو جامدة ، طبيعية أو صناعية . واذا صلحت المدنية وسيلة تساعد الحضارة على التحقق والتقدم والارتقاء ، فانها لا تصلح غرضا بذاتها ، إذ بذلك تفقد الحضارة ذاتها فى نفس الانسان ، فتتوارى انسانيته وتستعبده المادة ، منتقمة من استعباده لها .

وليس هناك ما ينقذ الانسانية من ويلات سيطرة المدنية فى نزعاتها المادية المختلفة كاليقظة الواعية فى الأمم عامة ، وفى شبابها بنوع خاص . والنفس البشرية تستيقظ بفطرتها كلما انتبهت للنوائب ، أو كلما اشتد ألمها من ويلاتها ؛ ولكن قد تكون اليقظة بلهاء ، فتعيدها إلى النوم والاستسلام . واذا علقنا آمالنا على يقظة الشباب فللشعلة المتقدة فى داخل ذاته ، وهى شعلة مباركة تشع حماسا واقداما ونهضة ، إذا تكون الشباب تكونا صحيحا .

وهنا تبرز المشكلة فى أوجها حين تصبح مشكلة الشباب . فالشباب امكانات يجب أن تتحقق هى بذاتها أولا ، لتتكون الرجولة الصادقة فى الفتيان والأنوثة الصحيحة فى الفتيات ؛ ولتحقيق هذه الامكانات مشاكل عديدة يجدها الشاب فى نفسه وفى مجتمعه ؛ وأهمها تلك التى يجدها فى نفسه : من تناقض واضطراب وانفعال وارتباك ، حالات يتعلق بأمر تركيزها واتزانها حقيقة ذلك التكون وصحة الاتجاه . فكيف يتم ذلك للشباب ؟ ! ...

١ — ادعاء وغرور

ندعي ، نحن الآباء ، ويشاركنا في هذا الادعاء رفيقات حياتنا الأمهات ، وقد يدعمنا فيه من حولنا من أبناء جيلنا ، أو من سبقه ، من العشراء والأصدقاء والمربين ، ندعي جميعنا بقوة ، وربما باصرار ، ان الحياة والكيان الاجتماعي وطبيعة الوجود تنيط بنا أمر تربية أبنائنا على الوجه الذي نختار ، واذا تواضعنا قلنا : على الشكل الذي نراه موافقا لمصلحتهم ، ولتأمين مستقبل زاهر لهم ، واذا ازددنا تواضعا قلنا : على ما يقتضيه استعدادهم . وقد نجد تعبيرا ، أو تعابير متعددة غير ما ذكرنا ، وربما كان بعضها أروع سبكا ، في قولنا مثلا : نربيهم لنعدهم للحياة . . . أو ألطف دلالة ، حين نصرح : ان تربيتنا لهم انما هو لتوجيههم في الطريق المستقيم ، مقررين بأن التربية توجيه ، وكفى . . . ! ونحن في كل ذلك إنما نعبر عن حقيقة واحدة . هي : إدعاؤنا أننا نحن نربي أبناءنا . وهنا يبرز فينا غرور الانسان بنفسه ، إذ يعتقد أنه يستطيع السيطرة على الحياة الانسانية في تكونها واتجاهها وسيرها . وهو لو استطاع ذلك لملك حق البقاء على ترفه الذي يحبه حبا جما ، ولما استطاعت الحياة أن تميد به الأرض وتعيده الى همجيته ، على الرغم من مدنيته ، لتنتقم منه انتقامها الرهيب ، لتحيي أو يفنى ! . . . وما ذلك الا لأنه خالف نواميسها ، وما أشد فتكها بمن يخالف النواميس ! . . . وناموس النواميس في كيان الحياة هو : الحرية والانطلاق ! وكل من يحاول تقييد حريتها ، أو الضغط على وثبات انطلاقها ، يتعرض حكما لانتقامها ، وهكذا هي تنتقم اليوم من انسانية يتفنن قويها في الضغط على من يرى فيه الضعف ليسلبه حقوقه ويستعبده .

نعم ، ان الحياة تنتقم ، حين ترى نواميسها مهملة محتقرة . انها تنتقم ، ما دام الانسان يهزأ بكيانه الانسانى ويسخر بنواميس الحياة المقدسة ! ... وانها ستظل مستمرة على التشدد فى انتقامها ما نسى الانسان نفسه بتناسى كيانه الانسانى المميز له عن سائر الكائنات ! وامارة ذلك اهمال التضحية فى سبيل المثل العليا ، وهذه التضحية هى أقدس ناموس من نواميس الحياة التى يتميز بها الانسان فى كيانه الخاص ، وفى تكوينه الذاتى . لا يشعر الحجر ، ولا الحمار فى أن يضحى بحياته فى سبيل الحق والاستقلال ، والحرية والكرامة ، لأن كيان كل منهما يقوم على أنه عنصر فردى فى الطبيعة ، فهو قطعة من المادة ، وحسب ، ولذلك يستخدم قسرا ، ويستثمر قهرا ، دون أن يكون له أى حق فى اعتراض أو مقاومة . أما الانسان فقد خلق حرا ، على حد قول عمر : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » ، وهو لا يستطيع حماية حريته الا بقوته واستعداده للتضحية بحياته فى سبيلها .

ليس الانسان عنصرا فرديا فى الطبيعة ، وانما هو كيان اجتماعى فى عالم الوجود الروحى ، خلق ليسود لا ليستعبد ، وليس من شأنه الانسانى أن يسخر أو يستثمر ، فلا يحق له أن يتنازل عن انسانيته ليصبح قطعة من المادة ، والا انتقمت منه الحياة ! .. وانما كانت التضحية أقدس النواميس اذ بها يتحقق ناموس النواميس ، ألا وهو : مبدأ الحرية والانطلاق ! ...

وما يصدق على المجتمع الانسانى فى المظاهر المختلفة لحياته ، يصدق عليه فى مظهر تربية النشء فيه ، وفى تربية الشباب خاصة ، لأنه مجموعة امكانات يجب أن تتحقق على الوجه المتفق مع حريته وانطلاقه فى مجتمعه المحدود أولا ، ثم فى المجتمع الانسانى المترامى الأطراف . ولا بد من الالماع هنا

الى أن ما يقصد من الحرية والانطلاق ، لا يتفق مطلقا مع ما يفهم من الفوضى والانفلات ، على ما سيأتى .

فادعاؤنا أننا نستطيع أن نربى أبناءنا كما نشاء غرور يتعارض مع ناموس الحرية الانسانية وانطلاق حيويتها ، ومع ما تقتضيه ذاتيتها من تبدل وتطور ، اذ هى فى استمرارها فى السير لا تستقر على حال . ولذلك قال الأقدمون : « عودوا أبناءكم غير ما تعودتموه ، فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » وكأنى بهم يقولون : دعوهم يتعودون ، بارشادكم واشرافكم ، ما يقتضيه تبدل الزمن من عادات يحتفظون بها بكيانهم ، وثقوا بوحى الحياة فى نفوسهم ، ما دامت الحياة فيهم حرة منطلقة والا فان هذه الحياة ، اذا قيدت فى حريتها وأوقفت وثبات انطلاقها ، تخمل أو يستولى عليها العناد ، فلا تعود جديرة بالثقة فى وحيها ، وتشك وتمق الآباء والأمة ، وتمق نفسها .

٢ — لم نطالب بحرية التربية ؟

اذا طالبنا بحرية التربية فى النشء ، ولا سيما فى الشباب ، فلأننا نخشى على أبنائنا من انتقام الحياة منهم اذا حاولنا التحكم فى تربيتهم وبتقرير مصيرهم ، على حد قول دركايم : « لا نستطيع تربية أبنائنا كما نشاء ، واذا حاولنا ذلك تنتقم الحياة منهم » . واضم الى ذلك : ومنا ... ! ...

نعم ، تنتقم الحياة منا ومن أبنائنا ، إذا دفعنا الغرور لتحقيق ما ندعيه من استطاعتنا لتربيتهم كما نشاء ، ولتوجيههم الوجهة التى نختارها لهم ، بما تشعه فى نفوسهم من روح تواكلية تضعف معهـــا عزائمهم وهممهم وتخيب آمالنا .

الولد هو الوارث ، وبه يحاول الوالد الخلود فى هذا العالم ؛ فلا غرو إذا أحبه حبا جما ، ولا عجب اذا تعلق به ، ولكن الأمر الغريب هو أن يصبح هذا التعلق افتتانا ينقلب معه ذلك الحب الأبوى الى حب أعمى ، فينشأ الولد ، وروح التواكل مسيطرة على نفسه ، ويتكون الشاب ، فى امكاناته ، تكونا خاطئا ، تضعف معه النفس ، أو تشذ ، فينهار ما شيدناه فى نفوسنا من آمال وأمان علقناها عليهم ، ونسب اليهم العقوق ! . . . ولا أدرى من هو أشد عقوقا : أهو ذلك الولد الوكل ، أم هو ذلك الوالد الذى لم يترك لابنه حرية الانطلاق ، وجعله يثق بما يقوم به والده من أعمال ، لا بما يجب أن يقوم به هو نفسه من جهود ، ولا بما يجب أن يرسم من خطط ويهيء لنفسه من مشاريع ؟ . . .

والشواهد على ذلك كثيرة ؛ فمن الذى لا يعرف الكثيرين من أولئك الأبناء الذين يصبحون رجالا ويكادون لا يحسنون عملية شراء حاجياتهم من الأسواق ، لأن آباءهم لم يفسحوا لهم مجالا للقيام بشراء ما يلزمهم ، اما توفيرا لجهودهم ، أو خشية من هفواتهم . وانى أعرف رجلا أصبح جدا لأحفاد ، وهو لا يزال يرتبك عندما يقوم بأى عمل يضطر للقيام به بنفسه ويخجل من الدفاع عن رأيه فى أى مجتمع وجد فيه ، لأنه لم يتعود ذلك فى صغره ، وهو لا يفتأ يفخر بنشاط أبيه وذكائه ، آسفا على فقده ، إذ فقد موته خير من كان يتكل عليه ! . . . ومع هذا فهو فى أحوال ارتباكه كثيرا ما ينحى باللائمة على أبيه لأنه عوده الاعتماد على الغير ! . . . ولا تهمنى هنا لهجة التباهى الذى يذكر بها تاريخ حياته مع أبيه ، ليعلمك أنه تربى فى الدلال والنعيم ، إذ المهم أن نبين أن هذا الرجل هو من أولئك الرجال الأطفال الذين مر ذكرهم فى فصل سابق ، وأنه مع ثروته يعيش عاجزا

مسلوب الحرية والكرامة ، لأنه اتكالي لا يشعر بأن له كيانا مستقلا أو وجودا متحققا ، انه من الهمل ! .. لا راعي له في نفسه ولا في الخارج ، تتحكم به الأهواء والوساوس ، ويظل شاعرا بالعجز عن القيام بأود نفسه ، محتاجا لمساعدة الآخرين في أبسط حاجاته . فلا عجب اذا أصبح سخرية الساخرين !...

إن نفس هذا المخلوق ، وأمثاله ، مكبوتة لم تسنح لها فرصة للانطلاق ، وحريته مقيدة بما يسيطر على نفسه من ظواهر العجز والارتباك ، ولذلك تراه يفرح فرح الأطفال ويحرد حردهم . وما أصدق العامة في مثلهم هذا : « بنت الشاطره نايطه » ويقصدون بكلمة « نايطه » الخاملة البليدة . وما يصدق على البنت يصدق على الابن . ومن الخطأ أن نجنب الولد ، مهما أحببناه ، بذل الجهد فنحترز من تعريضه للخيبة باقتراف الهفوات ، فيكبر قليل الخبرة سريع العطب تتكسر نفسه وقد تتبدد وتتلاشى لاقل اصطدام . إن حبا يحمي الشاب من التعب والجهد هو حب كاذب أو مموه ، وان عطفا يفقد الشباب شعورهم بالتبعة في مكافحة مصاعب الحياة ، هو عطف خلب أو مزيف ! . . .

اذا أرادت الحكمة الالهية أن تكون السبب المباشر لوجود أبنائنا ، فانها لم تسمح لنا أن نقوم بخلقهم ، ولا بتكوينهم ، فالله هو الخالق وهو المكون ، فلنترك لمخلوقاته الحق في التكون وفقا لما أودعه فيهم من قوى واستعدادات ، ولما اراده لهم في حاضرهم وفي مستقبلهم من تفاعل ، في داخل نفوسهم أو مع ما يحيط بهم ، ومن كيفيات ، وامتداد واستمرار .

ان الله يغار على من خلق حرا ، وهو الانسان ، ويأبى عليه أن يعتمد على غيره ، أو ان يتكل على أي كائن سواه . والاتكال على الله معناه ، في

حقيقة التكوين الأزلى ، الانصراف عن ماسواه ، اذ فى اتكالك على غير خالقك تستعبد ، وفى اتكالك عليه تتحرر وتحقق استقلالك فى نفسك وفى مجتمعك . ولا يتحقق اتكالك على الله الا باتكالك ما أودع فيك من قوى واستعداد ، فتعمل لانك واثق بأن الله لم يخلقك عبثا ، فلا يعقل أن يهمل فيك وسائل العمل ، «اعقل وتوكل» هكذا قال نبى العرب أى اتخذ لاى عمل وسائله . ثق أن الله أكرم من أن يدعوك لعمل لم يمنحك وسائل تحقيقه . فاذا دعا الانسان الى تحقيق كماله الانسانى فى نفسه ، فانه قد أودع فى هذه النفس مايسيرها نحو هذا الكمال . فاتكل على الله فيما أودعه فيك ، وانصرف عن الاغيار فى اتكالك ، تكن عبدالله المحض ، ومن كان عبدا لله فهو الحر الذى لايستعبده أى مخلوق ، حتى ولا نفسه . تعس عبد نفسه ! تعس عبد أى مخلوق مثله ، فكيف بالادنى ، والسعادة لا تضمن الا لعبدالله ، لانها لا تكون الا لمن يتمتع بارادته وحريته ، وهذه هى ارادة الله الخالق الحكيم .

لايجوز مطلقا أن تكون صلاتنا مع غيرنا ، مهما قرب منا أو بعد ، صلة اتكال ، فى الاتكالية الزوال والهلاك . وانما تكون تعاون وتعاضد فى قطع طريق الحياة . وهكذا يجب أن تكون الصلات بين الاجيال ، السابقة والطالعة ، وهكذا يجب أن تكون الصلة بين الآباء والمربين وبين الابناء والقاصرين . تعاون وتساند يمنح فيه الاقوى كل ماعنده من وسائل فى القوى ونتائج فى الاختبار ، ليستطيع الجيل الطالع أن ينمو ، ولا سيما بشبابه نموا طبيعيا يشعر معه بأنه كائن حر ، يتمتع بارادته . ولا تخش ، أيها الوالد الشفوق ، أى عقوق قد يصدر عن ابنك اذا احترمت حريته ، فان من ينشأ حرا لايجد العقوق الى نفسه سبيلا ! . . .

٣ — الحرية والفوضى

نخشى وقد ذهبنا بعيدا فى تأييد الحرية ، تحقيقا للتربية الحرة فى الشباب ، أن يشتبه علينا الامر فلا نفرق بين الحرية والفوضى . فالحرية فضيلة بين نقيضين متناقضين هما : الطغيان والفوضى .

فالطغيان مغالاة الفرد فى حريته لدرجة يجيز لنفسه معها التعدى على حرية الآخرين ، وقد يظهر الطغيان فى المجتمعات ، فيضغط الاقوى منها على الاضعف مستثمرا أو مستعمرا ، فيفرط فى تأييد حرية أبناء مجتمعه ، منفردين أو مجتمعين ، على حساب غيرهم من الشعوب والامم . وهو لا يتورع عن سلب سائر الشعوب حريتهم ليتمتع وحده ، لانه الاقوى ، يرافق العالم وخيراته ، وان ترك شيئا فانما يتركه احسانا ، على ان يسلب من الحرية بقدر ما يمنح من الخيرات .

فالطغيان مظهر افراط فى السيطرة على الغير : سيطرة فرد على شعب ، او طبقة على طبقة اخرى او طبقات ، او سيطرة امة على غيرها من الشعوب والامم ، او سيطرة مجموعة من الامم على مجموعة اخرى ، كسيطرة الغرب على الشرق مثلا ، فانك تجد ، فى كل هذه المظاهر للطغيان ، سيطرة السلطة ومحاولتها التمتع وحدها بالحرية على حساب الآخرين من التابعين لها ، افرادا او شعوبا او طبقات .

وهذا افراط فى سيطرة السلطة ، يقابله تفريط فيها ، يقول به الفوضويون ، ففى الفوضى محاولة ازالة السلطات وافراط فى حرية الافراد ، فلا حاكم ولا محكوم ، ولا شريعة ولا نظام ، الا ما يستوحيه الفرد من ضميره ، والصلات بين

الافراد مبنية على الحرية المطلقة . وهو نظام خيالى لاينسجم مع حقيقة الواقع ، وانما هو سبيل معبد للطغيان ، مادام للقوة اثرها فى العالم ، واثرها باق لايزول الا بزوال العالم . ولا يعقل ان تكون لفرد حرية لا تتقيد بحرية الآخرين فى المجتمع ، والا فمن يحفظ لجميع الافراد فى المجتمع حريتهم اذا لم يكن لسلطة النظام سيطرته ؟ . .

والحرية نظام وسط ، يقبل بمبدأ السلطة على ان تكون حامية للحرية تعم جميع الافراد ، فتفسح لهم جميعا ، فى الحياة ، مجالا واسعا للفرص المتكافئة ، وتقاوم الفوضى والطغيان بلا هوادة ، فالنظام الحر ، وهو النظام الديموقراطى فى صميم حقيقته لايتم الا بتربية حرة تنطلق فيها النفس على سجيتها ، فتتفتح براعم ازهارها ناشرة عطرها الذكى فى جميع الارجاء .

قال برونشويك : « يظهر ان الانسان متجه فى مثله الأعلى اتجاهين متعاكسين : الأول يدفعه للتحرر من الأنظمة والشرائع ، والثانى يحرره بالأنظمة والشرائع » .

وأرى أنه يريد بالأول الفوضويين الذين يعملون على التحرر أو بتعبير أصح ، على الانفلات من كل نظام أو قانون ، وبالثانى الديموقراطية الصحيحة ، وهى ترمى الى تحرير الناس بطريق التنظيم الحر ، وباحترام الشرائع والأنظمة احتراما يبعثه فى الانسان مايتمتع به من حرية وانطلاق .

فالمواطن فى هذا التنظيم الديموقراطى الحر يحترم الشرائع والأنظمة ، لا بطريق القسر والقهر ، أو التحكم والتغرير ، بل عن ادراك وفهم واقتناع انه يطيع ، ولكن بملء حريته ، وهذه هى الحرية الصحيحة ، لا الحرية التى تدعيها الفوضى ، وليس لها نظام يثير لها السبيل ، لذلك كانت الديموقراطية

فى صميم حقيقتها مثل الانسان الاعلى ، فى انسانيته . وإذا دعونا للتربية الحرة ، فانما ندعو فى الحقيقة إلى تثبيت كيان هذا المثل الأعلى ، لتستحق الانسانية الطمأنينة والسلام .

فنحن ، فى تربية الشباب ديموقراطيون ، نتجنب مبدأ طغيان الآباء والمربين وسيطرتهم السيطرة المطلقة على سير الشاب وتفتحه ، كما نحارب فى الشباب مبدأ الفوضى وهو يؤدى الى خلع سلطات المربين والآباء . فالخطر ماثل فى الحالتين :

فى الحالة الأولى ، وهى حالة الطغيان ، أى الحالة التى يعمل فيها المربى على تربية الشاب كما يشاء هو ، لا كما تقتضيه حريته ووثبات انطلاقه واستعداداته ، نرى الشاب معرضا لأحد خطرين : الكبت ، أو العناد .

فاذا كبتت نفسه وخملت ، تخمد شعلة الشباب فيها ويعود طفلا ساذجا على خبث كمين ، وقد تستولى عليه بعض الأمراض النفسية ، فيفقد توازنه الى الأبد .

وفى العناد ، يخشى أن يؤدى به عناده الى العقوق ، ومن يجرأ على عقوق والديه ، أو مربيه ، يضعف الأمل فى نجاحه وفى حصول الخير على يديه .

وفى الحالة الثانية ، اى حالة الفوضى ، وفيها يخلع الشاب سلطان كل سلطة ، يخشى عليه من الضلال ، فلا يستطيع الاهتداء لسواء السبيل ، لقلة خبرته وضعف معرفته ، فهو ، لاشك ، بحاجة لمن يسدد خطاه بارشاده وبتوسيع مداركه . ويشترط فى مرشده ان يكون محبا ومخلصا ، ذا معرفة واطلاع وخبرة بأمور الحياة . ومن اخلص له من والديه ، ومن أعرف بامور الحياة التى يهيأ لها منهما ومن مربيه ؟... وإذا ابى الا ان يسير فوضويا فى

سلوكه ، دون ان يسترشد ، يتعرض حكما لما تعرض اليه فى الحالة الأولى من كبت وعناد ؛ اذ يعترضه فى سيره صعوبات تزيد فى تضليـــله ، فيرتطم ، ويقع فى مشاكل لا يعرف كيف يتدبر أمره فيها . فتكبت وتبات انطلاقه ، ولعله من الصواب ان نسمى كبته هذا كبت الحيرة ، فيعيش محتارا فاقد التوازن ، ويصبح عدو المجتمع ، يشاغب دون وعى صحيح ، وهو اقرب مايكون للشر منه للخير .

وقد ينتج ضلاله فى فوضويته عنادا فى نفسه ، هو اشد خطرا من العناد الأول وابعد اثرا ، اذ قد ينقلب لمرض نفسى يتدرج به فى السير فى طرق الأمراض العصبية حتى الجنون على انواعه ، وخاصة إذا تورط فى حالته هذا ببعض الأمراض الجسمية الفتاكة ، نتيجة لفساد فى السلوك أو افراط فى بعض العادات الشاذة . فيزداد فى حياته ظلاما على ظلام ، وتصبح نفسه مختنقة فى ليل حالك من اليأس والندم وخوف سوء المصير .

وكيفما كانت النتائج فان مظاهر الكبت والعناد كثيرة ومتنوعة ، وانها فى هذه الحالة أشد تأثيرا فى النفس من الحالة السابقة ، لأن الضغط فى الحالة السابقة ضغط طغيان مصدره الخارج ، ويؤمل أن يتدارك نشاط الشاب الداخلى وحيويته كثيرا من ويلاته . أما والمصدر داخلى فى الحالة الثانية ، حالة الفوضى ، فمن يجيره فيها من طغيان نفسه على نفسه ، ومن ينقذه من ويلات هو مسببها إذا لم يمتلك زمام أمره ويسترشد بمن هم أكثر منه إدراكا لحوادث الأيام ؟...

إننا لا نقول بقول من يعتقد ان الشاب كالشمع ، نستطيع اعطاءه الشكل الذى نريد ، كما اننا لا نوافق من يريده فوضويا فى تربية نفسه . وإنما نرى ان الشاب هو الذى يربى نفسه ويحقق رجولته . بما منحه الله

من قوى داخلية ومن حيوية وثابة ، ولكنه بحاجة كبرى للارشاد والتنوير ليرى طرق السير واضحة . وإن أولى الناس بذلك من هو احب الناس اليهم ، ممن يدركون نواميس الحياة بعد اختبار وبحث ودرس .

فليس لنا ، كآباء ومربين ، ان ندعى اكثر من استطاعتنا وهذه تنحصر بامكان مساعدتنا للشباب ، فنتعاون معه فى تربيته لنفسه . ولا نستطيع مساعدته ، ولا ينجح هو فى تربيته لنفسه ، الا اذا ارتكزت عزيمتنا وحيويته ونشاطه على الثقة المتبادلة ، اذ الثقة اصل أولى من اصول التربية بصورة عامة وهى مبدأ اساسى فى تربية الشباب خاصة .

٤ — الثقة فى التربية

لا اعرف عملا يشترك فيه اثنان او اكثر ، ويقدر له النجاح ، الا اذا اعتمد على الثقة المتبادلة بين القائمين به . ولا يشذ عن هذه القاعدة أى عمل تجارى أو صناعى أو اجتماعى او خيرى ... أو غير ذلك . حتى أن الالعاب ، على اختلاف أنواعها ، تحتاج ، فى انتظامها ، وفى الحصول على مسراتها وفوائدها ، الى الثقة المتبادلة بين اللاعبين .

هذه حقيقة اجتماعية واقعية ، لا يعقل ان يخرج عليها الشباب ومن يقوم على تربيتهم من الاولياء والمربين . والخروج عليها هو خروج على الحياة فى نواميسها ، فلا نستغرب اذن فشل المربين وخيبتهم ، إذا لم ينجحوا فى تحقيق مبدأ الثقة بينهم وبين من يعنون بامر تربيته من الشباب .

وإذا قلنا الثقة ، فانما نريدها ثقة متبادلة تتحقق فى المظاهر الآتية :

(ا) ثقة المربى بنفسه .

(ب) ثقة المربى بمن يعنى بتربيته .

(ج) ثقة الشاب المتربى بنفسه .

(د) ثقة الشاب المتربى بمن يساعده على تربيته لنفسه .

(هـ) ثقة المربين والشباب بامكانات التربية .

ثقة المربى بنفسه :

لابد من الالماع هنا الى ان كل مايحيط بالولد وبالشاب ، من مظاهر طبيعية واجتماعية وسياسية . . . يؤثر فى تربيته ، فيمكن اعتبار كل هذه الكائنات مربية . وفقا لما ذهب اليه بعض الفلاسفة والمتصوفين ، ولكن ، هل التأثير فى تربية النشء ، هو بذاته من مقومات وجود كل هذه الكائنات ؟.. طبعا ، لا ! فليست البحار فى اتساعها ، ولا الجبال فى ارتفاعها ، ولا الحكومة فى تنظيمها ، ولا ما يجرى حول الولد من حوادث صالحة أو طالحة . . . الخ ، وسائل قصد ، أو يقصد من وجودها تربية النشء . فهى تؤثر فى تربيته ، دون أن يكون لهذه التأثيرات اى صلة بوجودها .

وذلك بخلاف المربين من اولياء ومعلمين ، فان فكرة التربية مقصودة فى الصفة التى يكتسبونها عندما يصبحون آباء أو اولياء او مربين ـ معلمين او اساتذة ـ ، فالثقة بالنفس كمرب انما تتعلق بهؤلاء .

قلنا يجب ان يثق المربى بنفسه اولا ، سواء أكان ابا او استاذا ، فكيف تتحقق هذه الثقة وما هى عناصرها ؟.. تتركب فكرة ثقة المربى بنفسه من عناصر متعددة جماعها عنصران : عاطفته نحو من يربى ، ومعرفته باحواله وبما يجب ان يلقن من مواد علمية وفكرات مثقفة .

اما العنصر العاطفي فيقضي بان يثق المربي بانطواء نفسه على حب من يقوم بتربيته حبا صحيحا مجردا ، وعلى العطف عليه بصدق واخلاص ورب معترض يقول : إذا صح شكنا في تحقق هذا العنصر في نفوس المعلمين والاساتذة فهل يصح شكنا في تحققه في نفوس الآباء والامهات ؟ .. نعم ! ان الواقع يؤيد صحة هذا الشك . وان اكثر المشاكل بين الشباب وبين ذويهم انما تنتج عن عـــدم تحقق هذا العنصر العاطفي في نفوس الآباء والامهات . انهم يحبون ابناءهم حباجما ، ولا شك ، وانهم يؤثرونهم على انفسهم ، وهذا صحيح ! ولكن هذا الحب قد يشوبه شيء من الرغبة في الزهو بالولد ، لذكائه او نشاطه او جماله ... ، فلا يكون الحب صحيحا ، وقد يشوبه شيء من الانانية ، فيعتقد الوالدان انهما انما يربيان ولدهما ليكون عونا لهما في المستقبل ، او ليقوم بحفظ الثروة . او استمرار العمل الذي عليه مدار معيشتهما او اثرائهما ... الخ .. ، فلا يكون الحب مجردا . وفي كلتا الحالتين يميل الوالدان لتربية ولدهما على مايشتهيان ، اشباعا لرغبتهما ، أو استجابة للانانية في نفسيهما ، فتنشأ المشاكل في كل وقت تتعارض وثبات انطلاقه مع مايريدان .

ان الوالدين ، مع حبهما الشديد للولد ، يعتقدان في هاتين الحالتين انهما انما كانا سبب وجود الولد ليكون لهما ، يتصرفان به كما يشاآن . وهنا يبرز منشأ كثير من الاخطاء في تربية الشباب . فالولد ليس لوالديه ولا لأي انسان غيرهما ، ولا هو عبد لهما ولا لغيرهما من المربين ، ردد الناس ، وما يزالون يرددون قولهم : « من علمني حرفا كنت له عبدا » . هذه عقلية قدم عهدها ، وانها لاتتفق مطلقا مع ما صارت عليه الاذهان من تفتح ، ومع ما القى في قلوب المستنيرين من البشر من أنوار العلم والاختبار

فالولد كائن حر مستقل ، هكذا ولد ، وهكذا يجب ان ينشأ . ليصبح رجلا حرا مستقلا ، يتحقق به . وبأمثاله ، استقلال وطنه استقلالا صحيحا لا شائبة فيه ، وتثبت حرية اخوانه من المواطنين ، على الوجه الذى يضمن أنقاذهم من الطغيان ويجنبهم الفوضى .

وإننا لانخشى مع اتجاهنا هذا فى تحرير الشباب أى حقوق من قبله . وانما ينشأ العقوق من تحكم أنانية الآباء فى أبنائهم ولا يكون المتحرر ، كما سبق وبينا عاقا لأى انسان ساعده على تحرره . فليطمئن زملائى الآباء ، ولنحب جميعا أبناءنا حبا صحيحا مجردا ، نحقق معه حريتهم ونسهل به انطلاقهم . ولن نجد فى رجولة هؤلاء الشباب الا دلائل عرفان الجميل . فالشباب خير طيب وكريم ؛ ولن يكون ، فى تحقق رجولته ، الا خيرا ، طيبا وكريما . وانى من الذين يثقون بمن نحرر ونحفظ كرامته ، مهما قل احساننا المادى اليه ، أكثر ممن نخضع ونستعبد ، مهما كثر منا الاحسان اليه .

اذكر أن والدا جاءنى قبل فحص البكالوريا بأيام ، فى سنة من السنين ، ومعه ولده وكثير من كتب التوصية ، وبدأ يتذلل أمامى ، بشكل مفجع لأعطف على ابنه فى الفحص . فلم استطع الا مواريته ، آملا لابنه النجاح . وقد كانت دهشتى عظيمة عند ما أعلن نجاح الشاب بتفوق . فلم أتمالك ، وقد جاءنى مساء يوم اعلان النتائج مع ابنه شاكرا ، وخيلاء الزهو بارز على تقاطيع وجهه ، من أن أعلن له أن نجاح ابنه كان بتفوق ودون أن يحتاج لأى مساعدة ، واته علينا أن نشكر هذا الشاب النجيب ، لا أن نحمله مؤونة شكره لنا . ما كدت أتمم عبارتى حتى رأيت الدمع يترقرق فى مآقى الشاب ، وقد هرع يقبل يدى مرارا وبحرارة اشعارا بتقديره لجميلى ، وقد أنقذت كرامته . والمدهش فى الأمر أن مظاهر الزهو انتقلت من الاب الى

الابن ، لان الاب كان يفضل أن يقال ان ابنه نجح بنفوذ ابيه لا بجهده وذكائه . (وهذا دليل على ماقررنا سابقا عن نتائج الحب المشوب بالرغبة فى الزهو ، وعلى شكل يعاكس مثالنا السابق ، إذ للزهو اشكال تتعدد ، وحالات تتنوع) انه هنا والد يحب أن يتخذ ابنه وسيلة لزهوه ، ولو ضحى فى سبيل ذلك بكرامة فلذة كبده وحشاشة قلبه . ولا تستغربن ذلك ، ياقارئى العزيز ، فأنا أعرف الكثيرين من أمثال هذا الوالد ، واذا ذكرت حادثة فانما اذكرها للتمثيل ، لا للحصر ، وغرضى أن نتبين أصول مشاكل الشباب ، وهو الذى نعلق عليه الامل ، مع نفسه ومع غيره ولا سيما مع والديه ، وان نصل للمبادىء التى نحسن معها معاونته على تربية نفسه .

وانى أحب أن أؤكد للوالدين اننى أجد فى كل فرصة ، وقد مضى على حادثة هذا الشاب مايقارب الخمس عشرة سنة ، ان امارات عرفان الجميل من ذاك الشاب ، ومن غيره ممن ساعدتنى الظروف على مساعدتهم فى تحقيق حريتهم وحفظ كرامتهم ، مايشجعنى على نشر هذا المبدأ والدعوة اليه . احفظ للشباب كرامته ، يعرف لك جميلك فى رجولته . ! لان الشاب خير ، طيب وكريم ، فى شبابه وفى رجولته .

هذا فيما يتعلق بضرورة الحب الصحيح المجرد ، وبحسن نتائجه . وأما العطف الصادق المخلص مع الغيرة على مصالح الشاب وحده ، فانه ضرورى أيضا فى تربية الشباب . وكما أن الحب قد يكون مشوبا بحب الزهو ، أو مشوها بالانانية ، فالعطف قد يشوبه التزييف ، وقد يشوهه التضليل .

فام حنون تقف مانعة ابنها الحبيب من أى عمل يستلزم جهدا ، خوفا عليه من التعب والانزعاج ، وأب شفوق يخشى على ابنه من القيام ببعض المغامرات التى تستلزمها وثبات شبابه ، ان هما الا من أشد العثرات موانع لتحقق امكانات

الرجولة في الشباب . وليس العطف الذي يتوارى وراءه سوى عطف مزيف يضلل الشباب فلا يهتدي معه الى سواء السبيل . فكيف اذا رافق ذلك تدليع وتدليل ، لا ينتج عنهما سوى ارتخاء أعصاب الشباب ، وخمود شعلة وثباته ، فينطوي على نفسه المكبوتة ، أو يتمرد لدرجة العناد ، ان بقي له في أعصابه قوة .

يقول المثل العامي : « الزائد أخ الناقص » وهذا صحيح ؛ فنحن لا نريدها تربية شدة وقسوة ، ولا نرغب فيها تدليلا وتدليعا . « فخير الأنماط هو النمط الأوسط » .

فعلى المربي اذن ، وخاصة اذا كان أباً أو أما ، أن يثق قبل كل شيء بعاطفته نحو الشباب ، فيحبه حبا صحيحا مجردا ، أي بعيدا عن تأثير أنانيته ويعطف عليه بصدق وإخلاص ، متجنبا التزييف والتضليل في عطفه . وعليه أن يحقق العنصر الثاني في ثقته بنفسه ، وهو عنصر معرفته بأحوال الشباب وبما يجب أن يلقن من علم وفكرات .

وقد يتبادر للذهن انه يجب أن يتحقق مفهوم عنصر المعرفة في الأساتذة ، وحسب ، لأنهم هم الذين يهيأون لتربية النشء ، فبهم وحدهم يتعلق أمر تركيز التربية على المعرفة والعلم والفكرات . ولا نشك هنا في أن أكثر هذا العبء يقع على عاتق الاساتذة ، فهم المفروض فيهم انهم يستطيعون أن يدرسوا أحوال الشباب ومظاهر نفوسهم ومشاكلهم وطرق حلها ، وهم الذين يظن فيهم القدرة على تلقين العلوم ، وتوضيح فكرات السلوك . والخطأ الأكبر في تربية الشباب ، انما ينشأ من وضعه في دائرة نفوذ من لا يحسن هذه المعرفة وتلك الدراسات من الاساتذة ، فهؤلاء هم المسئولون ، الدرجة الأولى عن ثقافة الولد المنسجمة مع استعداداته النفسية عامة ،

والذهنية خاصة . ولا يستطيع تحقيق هذا الانسجام أستاذ يجهل القوى النفسية والذهنية فى طلابه وتلامذته . ويخون مسلكه ووطنه أى أستاذ يتعرض لتربية الشباب ، وهو غير واثق من معرفته بهم وبما يجب أن يلقنوا من علم وفكرات .

واذا ألقينا التبعة جلها على عاتق الأساتذة ، فى تحقيق عنصر المعرفة فى ثقة المربى بنفسه ، فاننا لم نفكر مطلقا فى تنحية الوالدين عنها . فهما ، وان فرض أنهما على ثقافة علمية ضعيفة أو معدومة ، يستطيعان الاعتماد على خبرة الحياة والتجارب التى تعرضا لها فى تنوير الأبناء ؛ وان هـــذه الاختبارات وأمثالها هى التى تتكون منها أصول العلوم التى يشعر بها المثقفون علينا . إذ الثقافة فى نظرنا على نوعين : الثقافة العلمية ، وهى التى تساعد على تكوينها المدارس المعروفة بطرقها الخاصة ، وعلى اختلاف درجاتها ، والثقافة الاختبارية ، وهى التى تكونها مدرسة الحياة والعمل . وخير ثقافة هى تلك التى تجمع بين الثقافتين . ومهما كان الأمر فللثقافة الاختبارية العملية أهميتها وقوة تأثيرها فى تربية الشباب . ولا نعـــدم حولنا نساء ورجالا لم ينلهم حظ التعلم فى المدارس ، فنشأوا أميين ، لا يقرأون ولا يكتبون ومع ذلك لا يندر بينهم من تنفجر الحكمة العملية على لسانه ، نتيجة لجهاده فى حياة العمل ، ولاختباراته المتكررة فى مختبر الحياة .

ان أنس شيئا ، فلن أنسى يوما سمعت فيه ، وانا فى سيارة عمومية ، رفيقين أميين يتحادثان ويتشاكيان على مسمع منى . وكان احدهما يشكو من تقييد الاستيراد ، بل من منعه ، بسبب الحرب ، فما لبث ان عبر عن ألمه بقوله مخاطبا صديقه : « ياخيا ، والله ما حلوة الدنى إلا اذا كان الانسان حر ما عليه آمر الامن بضر » ومعناه بالعربى الفصيح : « والله يا أخى ،

ليس لهذه الدنيا أى جمال اذا لم يكن الانسان فيها حرا ، ليس عليه آمر إلا اذا اضر » . فأخذت بتعبيره البليغ ، مع فقده بعض عناصر الفصاحة ، وتأملته ، فاذا بى أجده أبلغ ماسمعت فى بيان حقيقة الديموقراطية وسيادة الشعب .

إن للثقافة العملية فى نفس المرء تأثيرا جديرا بالاهتمام الكلى ، إذ قد يتجاوز فى عمقه وفى فهم الحياة والتعبير عنها ، ما يصل اليه المكتفى بثقافة الشهادات ، لا سيما اذا كان العامل فى حقل الحياة ذكيا ، نشيطا ومخلصا فى عمله . وليست العبارة السابقة وحيدة فيما نسمع من هؤلاء العاملين الذين تثقفهم الحياة ، ويهذبهم اختبار العمل فى حقولها ، قد تكون أبلغ ماسمعت ولكنها ليست كل ماسمعت ولا أقله فائدة ، فقد سمعت كثيرا ، ووعيت من ذلك كثيرا ، واستفدت مما سمعته منهم كثيرا . ولا أظننى الوحيد بين من انتبهوا لثقافة الحياة ، واستفاد منها ، فلم تحرم الشباب من الارتواء من مياه معينها العذب الصافى ، وهى مياه لم يداخلها كدر التصنع والتمويه والتزييف . فليثق الوالد ، ولتثق الأم ، وعلى وعى منهما ، ومهما ضعفت ثقافتهما عن طريق الشهادات ، بمعرفتهما بالحياة ، لئلا تصبح عقدة شعور النقص فيهما سببا يحرم ابنهما الشاب من نتائج احتبار الحياة وتجربتها .

وليثق كل منهما بأنه قادر على إدراك الكثير من كنه نفسية الشباب فى الأبناء ، وان هذا الكثير ، وان قل عند البعض ، يظل أكثر صفاء فى رونقه ، وأصدق تعبيرا عن الحقيقة ، إذ يصدر عن عاطفة حب الآباء وعطف الأمهات . يعجبنى هنا مثل عامى يقول : « يا حماية كنت كنة » ومعناه بالعربى الفصيح : « أيتها الحماة ، قد كنت كنة » ، وقصة الحماة والكنة مستمرة ، لا يجهلها أحد ، وانما أراد العامة فى هذا المثل تقريع الحماة ، إذ تسىء معاملة كنتها ،

فاتخذوا سبيلا قويما بتذكيرها بحالتها عندما كانت فى الوضع ذاته . فلم لا تذكر إذن الألم الذى كان يلازم نفسها لسوء معاملة حماتها لها ، أفلا يليق بها ، وقد خبرت سوء تأثير الظلم والاساءة فى النفس ، أن ترتدع عن إعادة تمثيل ذلك الدور المفجع فى رواية الحياة ؟ ... ولكن الجهل ، أو الغيرة ، أو غير ذلك من الصفات أو الغرائز . قد تبعث فى نفس الحماة عاطفة الانتقام لنفسها ، فتحاول الانتقام من حماتها بكنتها .

ليسمح لنا القارىء الكريم أن نستمد من هذه الطريقة العامية فى الاستدلال والبحث مادة لبحثنا ، إذ لا غضاضة علينا إذا تبعنا العامة فى هذا المنطق الفطرى السليم ، وقلنا للآباء والأمهات ، إنكم مررتم فى هذا الدور ، دور الشباب ، وقليل من التأمل المجرد المستند الى الانصاف من النفس والعدل فى الشباب ، يؤدى بكم الى تفهم الحقيقة وانصاف الشباب . واذا كنتم ممن يعتقد وقوع بعض الاساآت نحوه من أمه أو من أبيه ، فلا تتخذوا من صفة الاستعلاء بالأبوة وسيلة للانتقام من آبائكم بأبنائكم ! ... لا يجوز للوالد أن يقول : كان أبى شديدا قاسيا على ، فلا تكن شديدا قاسيا مع أبنائى ! وليكن برا بأبيه ، فلا ينظر لقسوته بمنظار أسود ، فقد كان فى زمن غير زمنه ، وقد عرف هو من الحياة ما لم يعرفه أبوه ! وليثق أن أباه كان مخلصا فى حبه وعطفه ، لأنه أب ، ولكنه لم يكن يستطيع التفريق بين الحب المجرد وبين الحب المغرض . أو الأعمى ، وما كان فى حالة تجعله يميز بين العطف المزيف المموه ، وبين العطف الصادق . فليكن هو مخلصا لابنه ، وليسر مع الزمن .

فان جو الحياة اليوم يسمح للمربين ، من أولياء واساتذة ، بأن يحسنوا التمييز ، واتجاه المصالح يشجعهم على اختيار الأنسب ، وتيقظ الأيام يعلمهم

واعين لما اختبروا ، اذا شاوروا وتأملوا باخلاص وروية ، فلا عجب اذا طالبناهم ، واذا طالبنا الآباء خاصة ، بأن يثقوا بأنفسهم ، عاطفة ومعرفة كل حسب ثقافته ووعيه ، ليفيدوا الشباب بأقصى ما يمكن ، وسيكون هذا وفيرا وجزيل النفع ، ما دام الاخلاص والصدق والتفكير الصحيح رائد هؤلاء المربين ، وما داموا يثقون بمن يعنون بتربيته من الشباب .

ثقة المربي بمن يعنى بتربيته :

الولد صيرورة ، وثقة المربي به هي ثقة بالغرائز الانسانية ، وبالقوى الفطرية في كيان طفولته وصبوته ، وبالنشاط الطبيعي وفعاليته في نفسيته التي لها تركيبها الخاص وكيانها المستقل ، وبالمظاهر التي تميزه عن الشباب والرجل ، وثقته بكل هذه المظاهر والنشاط والقوى والغرائز تعني انتظار تعاونها وتفاعلها كلها في تهيئة أسباب ما تنتظره من انقلابه رجلا يوما .

أما الشباب فانه امكانات يجب أن يتحقق الأصلح منها لتتحقق الرجولة التي قامت النفس بتهيئتها في دور الولودة ، أي الطفولة والصبوة . فاذا كانت الولودة دور التهيئة والتحضير فالشباب هو دور التحقق . وكل شاب لم تتحقق امكانات شبابه رجولة ، أضاع أمل الافتخار بها ، على حد قول الشاعر :

اذا بلغ الفتى عشرين حولا ولم يفخر فليس له فخار

والرجولة لا تتحقق الا نتيجة لما يتم بين المتناقضات من تفاعل يذكي لهيبه شتى الانفعالات . لذلك كان هذا الانفعال الذي نشكو منه في الشباب عنصراً أساسيا في تكون الرجولة فيه ، لما له من أثر في تركيز الفكرات في الفؤاد على ما سيأتي : كما أنه قد يكون خطرا قويا يبعد الشاب عن الرجولة الحقة ، بل قد يعيده لطفولة مشوشة ، إذ تركز على الترهات والسخف

والفكرات الصبيانية التى لا تزال تجتذبه اليها فى هذا الدور ، فى هذه الحالة قد يصبح الانفعال عنادا فيشتد الخطر ، إذ ينقلب الشاب ساخراً بالمثل العليا ، وبكل تفكير سام ، أو فكرات كبيرة ، فيظل ولدا ساخراً لا يعرف الاتزان ، ويتهار مستسلما لدواعى الفساد . ولا بد هنا من توضيح ما نفهم بالفساد ، بعد أن قررنا سابقا أن الهفوات لا تخيفنا ، لأنها لا تعنى فى نظرنا وفى غالب الأحيان ، سوى التمرين ومحاولة الاختيار ، فاذا توالت فى نوعها واقترنت بالانفعال العنادى أصبحت فسادا ، نخشى أن يستقر فى نفس الشاب ، فيزمن ويستعصى على المربين شفاؤه . وانما يحصل ذلك لسببين متعاكسين : الافراط فى الحزم لدرجة الشدة والعنف والقسوة أو التفريط به لدرجة الضعف والاستسلام متلونين بألوان التدليع والتدليل .

فى هاتين الحالتين الناتجتين عن الافراط والتفريط فى الحزم نعبر فى الواقع عن عدم ثقتنا بطبيعة الشباب ، فنغالى بتداخلنا فى تربيته بباعث الحب المصطنع ، فنخرج عن العطف الصادق متكلفين العنف والقسوة ، يوحى من عطف نموه ، كما قد نتداخل بباعث الحب الخـــادع والعطف المزيف ، فنلقى له الحبل على غاربه ، خوفا عليه من أن يتألم ، متناسين فضل الألم فى تكوين الرجال ، إذا أثر فى النفس فى الوقت الملائم ، وعند حدود تستلزمها الضرورة .

فما هى هذه الحدود ، ومتى يحين الوقت الملائم ؟ .. هـــذا ما يتعذر الوصول اليه ! . . . وكيف نستطيع سبر غور حياة إنسانية فى حالة انفعال يذكى تفاعل المتناقضات فيها لتتركز وتستقر ؟ . . . اذا قرر العلماء ان العلم قد يعجز عن تقدير حركة سريعة فى الطبيعة ، فكيف نستطيع نحن أن نحاول تقدير الحركات السريعة فى الحياة ، وفى حياة مضطربة مشوشة ! . . .

بل كيف نستطيع أن نقرر حالة الفساد فيها بشكل قاطع ، ونحن مسوقون ، فى كثير من الأحوال ، لاعتقاد الفساد فى كل ما يخالف ما اطمأنت اليه نفوسنا ؟ . . .

لاشك ، اننا مضطرون لأن نكون واثقين بمن نربى من الشباب ، اذا كان الاخلاص فى الحب والصدق فى العطف رائدين لنا فى تربيتهم . فالشباب برحب وخير ، وفى وثبات الحياة فيه كثير من الحكمة . فلنثق بوحى الحياة فى الشباب .

جاءنى يوما صديق عزيز ، وكانت أمارات الألم والغضب ظاهرة فى تقطيب وجهه . وماجلس حتى كاشفنى بدخيلة نفسه ، فاذا هو يشكو الى سوء سلوك ابنه ، ودليله الوحيد توالى تأخره فى المجىء الى البيت ليلا . وكان يزيد فى سوء ظنه ، مقويا دليله ، حالة ابنه عنـــد ما كان يسأله عن سبب تأخره ، أو عن المكان الذى جاء منه : قد كان يحمر وجه الشاب عند استماعه لأسئلة أبيـه ، فيجيب عليها بكلام مبهم فيـه كثير من الغموض وشىء من التحدى . فكيف لا يسىء ظنه . وكيف لا تذهب به الأوهام مذاهبـــا ؟ . . . ولدى التحقيق ثبتت لى براءة الشاب ثبوتا أقنع الوالد : فهو يقضى السهرة مع رفقاء له ، وكلهم مهذبون ، فى المنازل ، وبطريقة التناوب ، فيتذاكرون دروسهم حينا ، ويتلهون بالألعاب البريئة حينا آخر .

ولم تكن للسهرة فى داره نوبتها لانه كان يخشى أباه الشديد ، وأمه التى تكره الضيوف . وما كشفت لوالديه هذه الحقيقة ، مبينا الاخطار التى قد تنتج عن هذا الوضع ، والشاب فى حالة كبت ، حتى قرر الوالدان أن يفسحا لابنهما مجال قضاء السهرة فى الدار عند حلول نوبته ، مع اكرام

ضيوفه أكراما تقر له عينه . وقد كان لهذه الثقة يتبادلها الشاب ووالداه أثرها الطيب ، وقد ارتاحوا له جميعا ، وتبدلت حالة الشاب متحسنة فى كثير من مظاهر سلوكه فى البيت .

فلا تذهبن بنا الظنون والاوهام مذاهبها السيئة كلما لاحظنا ارتباكا فى أجوبة الشاب أو غموضا ، ومهما احمر لذلك وجهه ! . . فهذا لا يعنى دائما انه كان مقترفا ذنبا أو متلبسا بجريمة ! انه قد يكون فى الدور الذى تتفتح فى نفسه زهرات روح الاستقلال ونسمات الحرية وبسمات الاعتداد بالنفس فتنتعش فى نفسه ذاتية « الانا » التى تبعث فى تلك النفس وثبة انطلاق ، يتولد عنها امتناع اباء يجعل النفس تتألم لاى تدخل فى شؤونها الخاصة ، أيا كان هذا المتدخل . وفى هذه الحال يترفع الشاب عن أن يكون مراقبا ، لانه يحاول أن يتجاوز نفسه ، بتحريرها وتوطيد دعائم استقلالها . فساعده ، أيها الوالد الحنون ، وثق به ، معتمدا على ما تتفجر عنه نفسه فى هذا التفتح والانطلاق من مروءة ونخوة وشهامة .

لنذهب فى تأويل حوادث الشباب مذهب التفاؤل . فالشباب امل ! . . ليثق كل مرب ان فى نفس كل شاب ، بحكم توثب روح الشباب فيها ، رغبة أكيدة وميلا عميقا لأن يتجاوز نفسه ، سعيا وراء الاشتراك مع غيره فى اسمى الأعمال التى تؤدى لرفع مستوى النوع البشرى عامة ، ومجتمعه الوطنى بصورة خاصة ولذلك تبرز فيها ميول لتحقيق صفات جديدة ، فى مقدمتها الشعور بالتبعة وبوجوب تحملها ، وبضرورة التعاون وتجنب الاستئثار ، فيتخلى تدريجيا عن الكثير من نزعاته الفردية والصبيانية خاصة ، ليندمج فى المجتمع فلا عجب اذا ضحى بالقسم

الا كبر من وقته للاجتماع برفاقه الشباب ليتعاون معهم على تحقيق هـــذه الصفات وعلى رسم الخطط للمستقبل وقد اصبح يرنو لتحقيقه حسب مثل اعلى يكونه فى نفسه ، بعد ان تيقظ فيها شعوره بالتبعة .

ان انسانيته فى حالة التحقق فى هذا الدور ، فلتنق بروحه السمحة المرحة ، ولتفسح لها مجال العمل الحر ، ولندعها تنطلق لتنبثق عنها انبل الصفات . فانها إذا كبتت ، فى حال التفتح والتوثب ، يسيطر عليها الخمول والانقباض والفتور ، وتثور ثورة هوجاء تنتهى بالعناد والفساد .

لاتخدع ، أيها المربى ، باستكانة الشاب وخضوعه وهدوئه ، اذ ليس فى هذه المظاهر مايبشر بالنهضة ، ولا ببوادرها ، فى الفرد أو فى المجتمع . واستمع لأحد العلماء يقول : « ان الأولاد الوديعين الهادئين الذين يقبلون ماعليه المجتمع من تفكير ونزوع ، دون مقاومة ، يكونون فى المستقبل نماذج لطبقتهم ومحيطهم ، فيخسرون فى ذهنهم ذلك البريق الالهى ، مصدر الابداع الذى يغنى الارث العالمى » .

ان الشباب بحاجة إلى الارشاد والتدريب والتوجيه ، ولكنه ، وهو فى دور التحرر وتحقيق استقلاله الذاتى ، يأبى ان يكون تدريبه أمرا مقتضبا اونهيا جافا ، أو بشكل الضغط والقسوة ، وإذا اجبر على الخضوع لهذه المظاهر ، تلاشت ذاتيته ، وانهارت شخصيته وانسانيته . يؤثر فى نفسه مايثبت لديه من اخلاص مربيه وعطفه الصادق ، ويرتاح لثقة المربين به فيطيع مختارا ، لاخضوعا ، وينفذ مايؤمر به ، عن إدراك وروية . عندئذ ، وبفضل الثقة خاصة ، يفعل التنبيه الحكيم فعـــله ، لاسيما اذا جاء فى الوقت المناسب .

انه فى هذه الحال لايقبل ارشادك وتدريبك ، وحسب ، بل قد يتحمل قسوتك فى النصح ، ويرتاح لها ، مادمت لاتمس كرامته وعزة نفسه ، ومازلت تضرب له على وتر مصلحته ، لا على وتر مصلحتك وما تنتظر منه فى المستقبل ، بل على وتر الغيرة على مصلحته هو ، وعلى مستقبله .

ثق بالشباب ! . . . فقد تؤثر ثقتك به تأثيرا يجعله يبكى امامك إذا احسنت نصحه !... انه قد يبكى ، لا تألما مما تقول ، بل خوفا من أن يخسر ثقتك به . يؤلمه ، اذا كنت حكيما ، حازما ومخلصا ، أن يفقد تلك الثقة ، وانت الحليم الذى لا يرى فى الهفوة فسادا ، ولا فى الغلطه داعيا لعدم الثقة بحسن طويته وصدق نواياه .

انك بمنحه ثقتك تمنحه القوة ، لذلك تراه شاعرا بالحاجة اليها ، يتألم لفقدها . فما أروعه مشهدا يتألم فيه الشاب خوفا من ان يخسر ثقة مربيه ! وما أشد ملاءمة هذا الوضع لتأثير كلماتك فى نفسه ! . . . وما أجملها ثقة تنبثق منها ثقته بنفسه !...

ثقة الشاب المتربى بنفسه :

قلت الشاب المتربى ولم أقل المربى ، لأن المربى ينمو بفعل غيره ، واما المتربى فينمو بفعل ذاته . الانسان كائن حى ، والكائن الحى يمتاز بنموه الذاتى فى الطبيعة ، فهل يخرج الانسان ، وهو اسمى الكائنات الحية نموا ، عن هذه القاعدة ؟... فمن الخطأ الاعتقاد ، وهذه فكرة نسمح لأنفسنا ترديدها مرة اخرى ، اننا نستطيع تربية أى كائن حى ، أى تنميته ، فى مميزاته ، فهو ينمو بذاته ، ونحن نساعده ونهيىء له الأسباب والوسائل ، ضمن دائرة امكاناتنا وما قد يرشدنا اليه العلم الصحيح والاختبار الصادق

فليس من المعقول اذن ان يعتمد الشاب ، وهو فى دور وعيه الانسانى ، على الرغم مما يسيطر عليه من انفعال وتنازع وتناقض ، على الغير فى تربيته ، وأن يلقى التبعة فى سلوكه ، حسنا أو قبيحا ، على أمه وأبيه أو مربيه . ان كان لهؤلاء قسطهم فى التبعة ، من حيث المساعدة والتسهيل واختصار الوقت بفضل الحكمة فى ارشادهم ، وفى تهيئة الوسائل ، فليس له أن يتملل بهم إذا أضل السبيل . فقد أودعه الله قوى حيوية ، جسميا ونفسيا ، ومنحه نشاطا ذاتيا ، وحباه بعقل لايخطىء اذا لم يخدع الانسان نفسه ، ولم يعمل على تضليلها ، وماوثبات انطلاقه فى حياته سوى وحى لتلك القوى والنشاط والعقل التى اودعها الخالق فيه .

ويرى العلماء أن النمو الحر الطبيعى للحياة وللشخصية الانسانية ، هو شرط اولى لوجود العلوم العقلية ، فاجدر به ان يكون شرطا اوليا لوجود انسانية الانسان وتحققه !...

ولا فرق عندى هنا فى ان تعلق الجار والمجرور ، وهما بنفسه فى العنوان اعلاه ، بكلمة المتربى أو بكلمة ثقة ، بل قد أردت تعليقهما بالكلمتين معا ، وهذا هو التنازع فى اصطلاح النحاة . وكان بامكانى ان أقول : ثقة الشاب بنفسه وتربيته لها ، أو تربية الشاب لنفسه وثقته بها ، وانما فضلت الابقاء على التنازع ، احياء لهذا التعبير العربى ، وللمشاكلة مع جونا الذى نعيش فيه فى هذا البحث ، وهو جو يزدحم فيه تنازع الشباب مع نفسه ، ومع بيئته ، فى تقاليدها وتفكيرها وسلوكها ، ومع مدرسته فى مناهجها وفحوصها وكتبها ، ومع من تقدم وتأخر من المفكرين والقادة والجماهير . انه تنازع متصل الحلقات فى نفس الشاب النامية ، وعليه نعتمد فى تركيز المتناقضات واتزان الأعمال وتعديل الانفعال . ان هذا التنازع هو الذى يثير شعلة

الحياة فى الشباب . لتتقد نفسه نارا تصهر ذاتيته فتحرق المواد الغريبة عن انسانيته ، ليصبح معدنا انسانيا صافيا . ورحم الله المعرى ، القائل :

ان الشبيبة نار ، ان اردت بها امرا ، فبادره ، إن الدهر مطفئها

وانما يراد بها تحقيق الرجولة فى الشباب ، فليبادر الشباب الى بلوغ هدفه ، واذا بلغه ، وتحققت فيه الرجولة ، فلن يطفىء الله تلك النار المقدسة ، بل تظل متقدة فى نفسه طول حياته ، وما انعم حياة تنيرها شعلة نار الشباب الدائم !. . . وإلا فانه يصح فيه ، لاسمح الله . قول السرى الرفاء :

شباب المرء ثوب مستعار وايام الصبى ابدا قصار

اعاذ الله جيلنا الطالع من ان يكون شبابه ثوبا مستعارا . ومن ان تكون أيام الصبى فيه ابدا قصارا ! .. اننا نريده شبابا دائما تحرق ناره كل بدعة سيئة . وكل تفكير رجعى يدعو للتقهقر والتراجع ، وكل شعور بالضعف والاستكانة والاستسلام ، وكل روح خبيثة فينا تدفعنا لتحمل الأذى والذل ومرارة الاستعباد حرصا على ملذات الترف الوقتية الخادعة !... اننا نريدها حياة نمو حر ، لا وقفة لاستمراره ، ولا نريدها معيشة اكل وشرب ومتاع !... إننا نريدها حياة رحبة خيرة تعم الجميع ببركتها ونعيمها لا معيشة ضيقة شحيحة يترف فيها البعض ويجوع الآخرون ، فيستعبد الناس الناس ، ويسوق بعضهم بعضا من البطون ، وبحبال الأوهام ! ...

فاعمل على أن يكون شبابك شبابا دائما فى تحقيق رجولتك ، ولا تخش الحياة ، ولا تخف من متاعبها ، ففى هذه المتاعب انقاذك ؛ وماخلق الانسان إلا ليسعى ، ولا سعى إلا بالتعب . لم يخلق الانسان للترف والكسل والخمول وإنما خلق للعمل والجد والمجد . ولا يتم لك ذلك بغير الارتياح للتعب فى

أعمال تكتنفها الحكمة والكرامة والنشاط ، فى نطاق صالحك الذاتى والمصلحة العامة فى المجتمع وفى كل ماهو انسانى ووطنى. وانما تتناسب شدة التعب مع سمو المطالب . وما أصدق ابن نباته السعدى فى قوله :

سعى ، رجال ، فنالوا قدر سعيهم لم يأت رزق بلاسعى ولا طلب
حسن التأنى مفاتيح الغنى ، وعلى قدر المطالب تلقى شدة التعب

ومن لم يعرف فضله فى تحقيق مسرات الحياة السامية ، وفى تذوق روائع جمالها ، عاش فى ضنك الملل والضجر ، وتحت ضغط آلام الرذيلة واوبائها !..

فانتبه ، أيها الشاب ، لما يجب أن تختاره لنفسك فى دور التهاب نار شبابك فى حياتك ! فعلى انتباهك هذا ، وعلى ماتختار فى تكوين نفسك ، يتعلق مستقبلك وهناؤك وسعادتك فى هذا المستقبل الذى تشير اليه حتما ، أردت ام لم ترد ، أو يتعلق اضطرابك وشقاؤك ! . . فسعادتك وهناؤك بين يديك ! . . .

قال دى فينى : « ليست الحياة العظيمة سوى حلم للشباب تحقق فى الكهولة » . وهذه حقيقة واقعية يؤيدها التحليل النفسى لكل ماتعيه الذاكرة من مظاهر حياة الانسان الواقعية . فكل مايتذكر الانسان من وقائعه الذاتية الاصيلة ، انما تكون فى أول الأمر انتظارا ، أى صورة أو فكرة ينتظر الانسان تحقيقها وقد يتمناه ، ثم تصبح واقعا يتلمسه ، وقد يتذوقه بفرح أو الم ، ليستقر بعدها ذكرى تدخل على القلب السرور والانبساط والرجاء أو الألم والندم والقنوط . وماعدا ذلك من الذكريات أعراض ليس لها تأثير جوهرى فى حياة الانسان . وهكذا فان دور الانتظار فى حياة الانسان وفى مجمل مايتعلق به تكوين رجولته ، انما يكون فى دور الشباب ، لتصبح أحلامه حقيقة واقعية فى الكهولة ، وتنقلب بعدها ذكريات حلوة تنسج

منها الشيخوخة قبيض سعادتها ، او ذكريات مرة تكتوى الشيخوخة بنار آلامها ، وما اشد آلام الندم ، لاسيما فى دور من أدوار الحياه ، يعجز فيه الانسان عن تدارك مافات ، أو ارجاع ماقد تلف .

لاتذهبن بك الظنون والأوهام ، أيها الشاب النامى ، فتعتقدان شبابا يكون عدوا للعمل ، يتبع مبدأ اقل جهد ممكن ، خوفا من التعب ، يستطيع الادعاء بانه سيوطد لوطنه مستقبله ، محققا تركيز دعائم استقلاله وكرامته ومجده ، وتقويتها ! ... لاتذهبن بك الظنون والاوهام ، فتخدع باقوال من يقولون بان المبادىء السامية والمثل العليا هى من الانسجة القديمة التى لاتتلاءم بالوانها واشكالها مع حياة العصر الحاضر . لايستطيع شباب ، يهمل المبادىء السامية ويحتقر العمل ، ان يحتفظ بكيانه الذاتى كانسان فى الكهولة ، ولا أن يساهم فى توطيد مستقبل وطنه اية مساهمة .

قد يخدعك بعض المترفين الفاسدين المفسدين فيقول لك : « دع الحياة تسير ، فانك اضعف من أن تؤثر فى توجيهها ! مالك ولهذه العلوم والنظريات ، وماذا تجديك محاولتك تفهم الحياة ؟ فنحن اعجز من أن ندرك سرها . كن عمليا واعمل على ربح الدرهم باى وسيلة كانت ، لتستطيع انفاقه كما تشاء ، وهذا هو كل مافى الحياة من معنى ومتاع . فما الاخلاق ولا المبادىء سوى كلمات جوفاء حشرها بعض الناس فى الكتب ، وستظل باقية فيها إلى الابد ....! » .

أدعوك فى هذا الموقف ، وانت امام فاسد مترف كهذا ، إلى التأمل والدرس والتفكير ، قبل أن تتأثر بقوله . والق على نفسك هذه الاسئلة ؟ هل هذا المدعى للفهم سعيد ، أم أن كلماته هذه تنم فى الحقيقة عما فى نفسه من آلام ، أوقعته فيها سموم الضجر والملل ، لأنه لايحيى انسانا ، وانما

يعيش حيوانا ؟ . . ثم ارجع الى تاريخ الأمم وحقق فى أدوارها ، وحاول أن تستخرج امعد أدوارها منها ، أتراه دوراً سادت فيه المبادىء ، أم أهملت ؟ أتستطيع امة ان تحتفظ بكيانها وتنعم بالامجاد تلو الامجاد دون أن يكون لمبادىء التضحية والشجاعة والتضامن والادراك لحقائق الحياة ، وغيرها من المبادىء السامية والفضائل ، اثرها فى تكونها الاجتماعى ؟ . . وهل يسعد انسان يسخر بمبادىء الثبات والاستمرار والاباء وغيرها من مبادىء تكون انسانية الانسان وفضائلها ؟ . . .

ولا يغرنك ماقد يريده هذا المترف الفاسد ، أو المجتمع القانط ، مما قد ينبهك اليه من أحوال بعض الناس فى الأمم الكبيرة الراقية ، أو مما يصدر عن هذه الأمم من تصرفات لا تتلاءم مع المبادىء السامية والاخلاق الفاضلة ، فهناك حقيقة لابد لك من تفهمها وأنت فى دور تكون ذاتك ، هى أن بوادر الانحطاط قد أخذت تبرز فى هذه الأمم العظمى ، وبقدر ما أثرت فيها هذه البوادر بعدت عن السعادة التى كانت تتمتع بها ، مجموعا وأفرادا فى أدوار النهضة ، مع أن وسائل النعيم كانت فى تلك الادوار أقل مما هى عليه الآن . وإذا بقى لهذه الأمم بقية من قواها وأمجادها . فبفضل بقية من تلك الاخلاق والسجايا والمبادىء ، فاذا زالت ، فانها ستنهار ، ولو كانت تمتلك القنبلة الذرية ، فان هذه ستكون وسيلة دمارها ، ولن تستطيع حفظها من الهلاك . تأمل حوادث الكون وادرس أحوال الناس على سجيتهم تتحقق أن السعادة مظهر انسانى بحت ، فلا سعادة للحيوان أو الجماد ، وان هذه تتحقق فى نفس الانسان وفى ضمير المجتمع ، بقدر ما تتحقق فيه عناصر انسانيته . وأن هذا التحقق انما يتم على أساس التفهم للحقائق وإدراك نواميس الحياة .

فحياة الانسان تبنى على أساس تأويله الشخصى لتجاربه الخاصة فى كفاح الحياة ، وصحة تأويله تتوقف على قوة إدراكه ومعرفته ، ولاسيما على قدرته على التمييز بين الحلم والوهم وبين الواقع والحقيقة . وهذا يقتضى حكما أن يكون فى تحقق النفس الانسانية تفاعلات قوية مجردة ، يثيرها نشاط حيوى سليم . وهذا النشاط وذاك التفاعل لا يأتيان من الخارج وإنما هما يتحققان فى الداخل ، وعليهما مدار تربية الشباب ، ولعلهما يعنيان ما عبر عنه البحترى بالقريحة فى قوله :

إذا المرء لم تبدهك بالحزم والحجى قريحته ، لم تغن عنك تجاربه

والحقيقة أنه لاقيمة للتجارب الا بدرجة صحة تأويلها الشخصى فى داخل كيان الانسان ، نتيجة لتفاعلاته ونشاطه فى اعمال ادراكه وذهنه ، ولعل هذا ما أراده لينبتز فى قوله : « ان التجربة تساعدنا على الفحص والبحث ولكنها لاتصلح دليلا أو قائدا » .

فدليل الانسان فى داخله ، أوفى قريحته ، أى فيما يتم فيها من تفاعلات داخلية شخصية ذاتية ، عليها كل الاعتماد فى تربيته وتوجيهه . والشباب فى دور التكون ، أى فى أهم الأدوار تأثرا من هذه التفاعلات ، ومن اعتمادها على الادراك والتجارب والتأمل ، فى تحقق الرجولة فى نفسه . ولعل الشاعر العربى انما إراد ذلك عندما قال :

لاتنته الانفس عن غيها مالم يكن منها لها واعظ

فعلى الشباب أن يدرك ذلك ادراكا تاما ، وأن يعتقد أنه هو المسئول الأول عن تربية نفسه . فيجب أن يتحرر وأن يحسن التصرف والاختيار . وليس له مخرج من أن يبنى كيان طريقته الخاصة فى تربيته لنفسه على ركائز

ثلاث تستمد طريقته متانتها وقوة تأثيرها ، فى تكوين رجولة الشباب من متانة تلك الركائز وقوتها ، وهى :

(١) إدراك صحيح لنواميس الحياة الانسانية وكيفية سيرها فى سلوك الفرد وتكون المجتمعات .

(٢) التنبه الذكى لما يتعرض له من تجارب ولما يقوم به من اختبارات وملاحظة نتائجها .

(٣) تأويله الشخصى لتلك التجارب والاختبارات على ضوء ذلك الادراك . فهل يستطيع ذلك بمفرده ؟.. على الرغم من ضرورة ثقة الشباب بنفسه فى أمر القيام بتربيتها ، وبالرغم من أنه يجب أن يعتقد أنه وحده مسئولا عن تربية نفسه بنفسه ، فانه لاشك فى حاجة قوية لمساعدة من يعنى بأمر تربيته . وفى ثقته فى هؤلاء انما يقوى ثقته بنفسه ، لاسيما عند ما يختار هو هذه الثقة بادراكه لأهميتها . فما هى حقيقة هذه الثقة ، ثقة الشباب بمن يساعدهم على تربيته انفسهم ، وما هى أهميتها ؟ . . .

ثقة الشباب المتربى بمن يساعده على تربيته لنفسه :

يولد الانسان ولادة ثانية فى أول دور شبابه ، فيخرج من دور الولودة ، أو الصبوة ، وهو حائز على شيء من المعرفة ، ولم تخل حياته من بعض التجارب والاختبارات ، غير أن ماقد عرف او اختبر لايزال قليلا بالنسبة لما تقتضيه الحياة من معرفة وخبرة ، والأندر فى ذلك هو مايستطيع الولد إدراكه إدراكا صحيحا مما عرف أو اختبر ، بله ما يتعذر عليه من التأويل الشخصى للتجارب والحوادث . فهذه قوى تبرز تدريجيا فى دور الشباب وتتفتح ازاهيرها فى رياض حيويته . ولابد لتفتحها وبروزها من أسباب مهيئة ، طبقا لما يتم فى زراعة النبات من تهيئة الأرض بحرثها وتسميدها

وارواتها لمساعدة البذر أو الشجر عـــلى النمو نموه الذاتى الطبيعى . فاذا هيأت الحياة فى دور الولادة نفس الانسان لتقبل البذور فى دور الشباب لتكون ارضا صالحة للنمو الطبيعى ، وجب وجود من يهيء لها تلك البذور ويحضر وسائل الزرع بحرث الأرض وتنقيتها وبارواتها وتمهيدها . فالأعمـــال اللازمة لانماء البذور فى أرض النفس البشرية ، فانما تقوم بها النفس ذاتها ولا حاجة لها لاية مساعدة إلا فى تهيئة البذور وتحضير آلات العمل بالتعليم والارشاد ، والامهات والآباء والمربون أجدر الناس بالقيام بهذه المساعدة الثمينة ، ولا غنى للشباب عنها .

قلنا ان الأمهات والآباء والمربون هم اجدر الناس بالقيـــام بمهمة المساعدة لما سبق وبينا من تحقق وجود عنصر المحبة والعطف نحو من يعنون بتربيته من الشباب ، وعنصر المعرفة بأحواله وبما يجب ان يلقن من فكرات وخبرات .

فالوالدان والمربون الصالحون يخلصون النصح للشباب ، لأنهم فى محبتهم له لايحاولون خداعه ، وفى عطفهم عليه يتجنبون تضليله ، فكم والد امتلكت الرذائل عليه نفسه يأبى أن يسلك ابنه مسلكه ، ويحرص كل الحرص على أن لا يعلم ابنه من أمره شيئا . وكم من أم حنون تريد لابنائها حظا أوفر من حظها ! والمربى الصالح ألا يهز الطرب لنجاح تلامذته فى الحياة . وكل هؤلاء يلذهم ، إذا كانوا مربين حقيقة ، أن يفوقهم من يربون ، طوعا لسير فكرة الرقى والتقدم فى الحياة ، لذلك يجدون فى تقدم ابنائهم وتلامذتهم تقدما لذاتياتهم ولحياتهم .

ثم ليس هناك أدنى ريب فى أن خبرة الوالدين والمربين تفوق خبرة الشاب فى الحياة ، مهما كانت درجة ثقافتهم . فقد عاشوا قبله ، وذاقوا حلو الحياة ومرها ، وأدركوا الكثير مما فى الحوادث والصلات بين البشر من

أسرار ، هذا عدا ما اكتسبوه من معرفة فى أعمالهم وما سبق لهم أن درسوا أو سمعوا . وان ماسمعوه أو درسوه قد امتزج بمعرفة الحياة العملية امتزاجا جعل له حيوية جديدة عملية ، تكون أكثر اثرا فى نفس الشباب من معرفة الكتب والدروس وهذه هى المعرفة التى يعبر عنها بالمعرفة الحية التى يهتز لها القلب وتطمئن بها النفوس . وكل انسان عاش فى هذه الدنيا يمتلك شيئا من هذه المعرفة ، وبها تنتقل الحضارات فى اسمى معانيها من قلوب ابناء جيل يتناهى إلى قلوب ابناء جيل يطلع على الحياة بحيوية جديدة ونشاط مرح ؟... فلا تحتقر معرفة من يهمهم أمرك ، وان اخطأوا باعتقاد بعض الخرافات أو فى نقل بعض المعلومات . فلك من ثقافتك ووثبات انتباهك مايزيل اثر الاخطاء دون أن تحرم الاتصال بحيوية كثير من الحقائق العملية . والتى تكون فيهم من وحى الخبرة ، وقد سبق وأخبرتك عن بعض الفكرات التى اوحت إلى بعضهم بها الخبرة فى الحياة . مادمت طالب حقيقة ، فستجدها دوما ، وفى فترات مختلفة ، عند كل الناس ، وخاصة عند من يخلص لك من ذويك ومربيك .

ان للاخلاص سحرا فى تخليص النفوس وتنقيتها من الأدران . ومن أخلص لك ، أيها الشاب ، ممن يأبى أن يتفوق عليه أحد فى العالم سواك ؟.. الا تعلم انه يصعب على أى انسان أن يقال له أن فلانا يفوقك ، ولو كان أقرب الناس اليه ، الا الآباء والأمهات فانه يلذ لهم ان يفوقهم ابناؤهم ذكاء ومعرفة ، ويهتزون طربا إذا اعتقدوا امكان تحقق ذلك . قيل : « الولد سر أبيه » ولا غرابة فهو الذى يتممه ويكمل حيـــاته ، فبالولد يتراءى للوالدين الخلود . فكن أيها الشاب برا بوالديك ومربيك وثق بهم ، عاطفة ومعرفة ، لأنهم يهيئون لك وسائل عملك فى تربيتك لنفسك . ثق بعاطفتهم اخلاصا وحبا ، وبمعرفتهم ، خبرة وتجربة على الأقل . وإذا لم تستطع الثقة

بكل ذلك على مقياس واسع فثق على الأقل بأنهم لا يحاولون خداعك ولا يتقصدون تضريرك ، وثق ان ثقتك بهم لا تضعف ثقتك بنفسك . وإنما يجب أن تقويها . وان اثرت بها وأضعفتها ، فتلك لا تكون ثقة ، وانما تكون استسلاما . ونحن لا نريدك مستسلما لأحد ! ولا نرى لك خيرا فى ان تتلاهى عن نفسك وعن ثقتك بها ، وأن تشغل عن تربيتك لنفسك بغيرك ، ولا نعتقد ان والديك ومربيك قد يحاولون ذلك . هم يساعدونك فى تربيتك لنفسك . ولكن ماهى امكانيات التربية نفسها ؟... افلا يصح لنا بعد أن بيننا الثقة بانواعها : ثقة المربى بنفسه وبمن يعنى بتربيته ، وثقة المتربى الشاب بنفسه وبمن يساعده على تربية نفسه ، افلا يصح لنا بعد كل ذلك أن نثق بالتربية نفسها ؟ أهناك امكانيات للتربية المقصودة جديرة بثقة المربين وبثقة الشباب ؟ ... وهل هى مطلقة فى امكانياتها ، أم هناك قيود وحدود ؟...

ثقة المربين والشباب بامكانيات التربية :

اختلف العلماء فى امكانيات التربية : فمنهم من يرى أن لا تأثير لها فى اصلاح السجايا ولا فى افسادها ، ويعبرون عن رأيهم هذا بقولهم : لا تصلح السجايا التربية الحسنة ، ولا تفسدها التربية السيئة . ومنهم من يرى للتربية كل الاثر فيقول : يخلق الناس سواسية ، وباستعدادات متساوية ، وبالتربية يحصل الاختلاف .

والحقيقة هى بين هذين الرأيين المتطرفين افراطا وتفريطا . ومنشأ هذا التطرف ، بشكليه ، الاستقراء الناقص . وهنا تظهر قوة نظرية لايبنز وقد ذكرت قبلا ، وهى : « ان التجربة تساعدنا على الفحص والبحث ولكنها لا تصلح دليلا » . وقد تأثر هؤلاء العلماء ببعض الاختبارات ، سلبا أو ايجابا ، فبنوا عليها حكمهم ، دون أن تستكمل التجارب والاختبارات عددا كافيا من الحوادث فيؤدى للاطمئنان العلمى . وقد وقع ذلك فى وقت كانت التربية فيه ادبا أو فلسفة ، ولم يكن للبحث العلمى أى أثر فى تكوين قواعدها .

أما اليوم ، فقد أصبحت التربية ، بفضل المدرسة الحديثة ، علما واختصاصا . لذلك أخذت ، منذ أواخر القرن السابق ، تعتمد الأسلوب العلمي في البحث ، وطريقتها استكمال الاختبارات والتجارب استكمالا تحصل معه القناعة العلمية ، دون أن يكون للحدس المجرد تأثيره الذي كثيرا ما ضلل الأدباء والفلاسفة ، ولا يزال يضللهم ، كلما استسلموا اليه دون تمحيص ولا تدقيق .

لذلك ترى المدرسة الحديثة الحقيقة وسط بين هذين الرأيين ، فلا تفرط بادعاء أن التربية تعمل كل شيء ، كما أنها لا تفرط في سلبها كل قدرة . وأصل الخلاف ، في تفهم ناموس الارث . فمن فرط يرى أن الانسان يرث كل سجاياه من اسلافه ، وهي فكرة قديمة تقليدية تتفق مع النزعة الارستوقراطية والانظمة الاقطاعية ، ومبدأ تصنيف البشر الى طبقات . والواقع ينقض هذه النظرية من اساسها ، اذ كم شريف في أصله ، يتصف باقبح السجايا واردئها وكم شريف في فعله ، من غير تلك الطبقات العالية ، يبرهن على أنبل السجايا واحسنها ! وكم قلبت التربية سلوك كثير من الافراد في سجاياهم ، وكم ساعدت على تطور كثير من الجماعات والشعوب !

ومن أفرط في تأثير التربية انكر أي وجود لاختلاف الاستعدادات وهذه فوضوية في التفكير لا يؤيدها الواقع ايضا . فالانسان يرث من أبويه واسلافه ماهو واضح جلي وخاص وما هو عام ومبهم وغامض . والنوع الأول يتعلق بالجسم خاصة ، كالطول والقصر ، وكلون العيون والشعر ، وكاشكال أخرى تتعلق بالوجه أو سائر الأعضاء ، وهذه لا علاقة للتربية فيها .

أما النوع الثاني ، وهو بيت القصيد ، فانه يتعلق بالنفس بجميع مظاهرها الذهنية ، والشعورية ، والنزوعية ، والسلوكية والخلقية . وهذه لا تكون واضحة مطلقا ، فهي عامة ومبهمة وغامضة . فابن الشاعر ، لا يرث من ابيه

ملكة الشعر ، وإنما يرث قوة فى الخيال والتصور ، وبصورة عامة ، وقد يصبح معها رساما ، أو مهندسا أو شاعرا مثلا . كما ان ابن المجرم ، لا يرث روح الاجرام من أبيه ، انه يرث شيئا عاما وغامضا فى التوازن العقلى ، يؤدى إلى شىء من التمرد على قواعد معينة فى السلوك . وهذا لا يقضى عليه بأن يكون مجرما ، بل قد يصبح معه مكتشفا مغامرا أو مخترعا كبيرا أو سياسيا مجددا ، اذ فى النبوغ فى السياسة والاختراع والاكتشاف تمرد على الواقع . هـــذا خلاف ناموس الارث عنـــد الحيوان فانه يرث سجاياه معينة وواضحة منذ ولادته . ولعلنا هنا نلمس ما يميز الانسان عن الحيوان فى أصل تكون انسانيته فى سجاياه ، وهنا نستطيع أن نلاحظ العناصر الأصلية فى امكانات التربية ، وهى تخصيص العام ، وايضاح المبهم ، وجلاء الغامض فى كل ما نرثه نفسيا من الاسلاف ، أو فى كل ما تنطوى عليه نفوسنا ، من حيث نشوئها ، من استعدادات . والتربية فوق ذلك تعمل على ابراز القوى التى قد تظل كامنة لولا ما تقوم به التربية من مساعدة . والأمثلة كثيرة يلاحظها المربون وغيرهم فى كل وقت . فكم كهل تبرز فى نفسه امكانات ، تأسف لعدم بروزها فى سن الشباب ، وكم ندعى انه لو انتبه اليه المربون فى تلك السن ، إذن لكان من المبرزين فى الشعر ، أو فى الاختراع ، أو فى العلوم وغيرها ...

فالتربية اذن لا تخلق شيئا جديدا فى نفسية الانسان ، ففى هذه النفس كل ما تقتضيه انسانيتها من قوى واستعدادات ، وعلى درجات متفاوتة فى النفس الواحد ، وفى النفوس على اختلافها . فعلى التربية أن تبرزها ، حتى لا يظل منها قوة أو استعداد فى حالة الكمون ، وعليها ، كما سبق وقلنا ، أن تخصص ما فيها من عموم ، وان توضح ابهامها وتجلى غموضها ، فتساعدها

على التوجه الصحيح ، ولذلك قيل التربية توجيه ، والحقيقة ، فى نظرنا ، انها لاتوجه مباشرة ، ولكنها تساعد على صحة التوجه ، والانسان هو الذى يوجه نفسه ، أو بالاحرى هو الذى يجب أن يوجه نفسه باختياره وبحكم تفاعلاته الداخلية ، وبذلك يقوم بتربية نفسه ، والا فانه اذا وجه من الغير يكون مسيرا وينحط عن رتبته الانسانية . واذا وافقت تفاعلاته الداخلية بنتائجها التوجيهية ما أرشد اليه الغير ، فمعناه ، إذا كان حرا منطلقا ، أنه اختار بنفسه ذلك ، فهو الموجه لذاته فى الحقيقة .

فالانسان ، بحكم انسانيته ، لايعتمد ، فى تكوين ذاته ، على ما يرث من قوى واستعدادات فحسب والا كان حيوانا . فهناك امكانات عديدة للاكتساب ، يعتمد فى تحقيقها ، أو فى نقلها من حالة القوة الى حالة الفعل حسب اصطلاح الفلاسفة ، على ما فى فطرته من قوى ، وعلى ما قد يرث من أسلافه وأبويه من صفات . وهذه الاخيرة تكون عارضة قد يمكن تبديلها مع الزمن فى فرد أو فى سلسلة من الأفراد أو الجماعات ، أو قد تستقر فتصبح وكأنها فطرية .

والمهم أن نميز بين ماهو فطرى من قوى وصفات ، وهذه تدخل كعناصر فى كيان حياة الانسان ونفسه ، بحيث لاتدرك نفسيته إلا بها ، كقوى التأمل والتفكير والخيال والنزوع... وأعمالها ، فانها مظاهر لاتدرك النفس إلا بوجودها إجمالا ، واما درجة قوة الخيال ، أو ضعفه بشكل يخرج عن العادى السوى ، فهذه من المظاهر التى قد تتعلق بالارث . والفطرى يتسلسل وجوده فى جميع أفراد النوع ، أما الارثى فقد تنقطع سلسلته ، فيتولد عن ضعيف الخيال قوى فى خياله ، مثلا ، وبالعكس .

يبرز الفطرى فى الحيوان مع ولادته ، ويكون معيناً واضحا وجليا . فالنحلة تقوم بصنع النحل ، والنمل بالجمع ، بفطرتها ودون أن تكمن

هذه القوة فى أى فرد من نوعها . وأما الانسان فقد تكمن فيه كثير من قواه واستعداداته ، والتربية هى التى تساعد على إبرازه .

وأكاد أعتقد أن الارث النفسى ، لاسيما فيما يتعلق بالسلوك ، إنما هو من خصائص الانسان الذاتية ، والدليل إمكان تنوعه وتعدد مظاهره فيه ، بينما يكون سلوك الحيوان واحدا ، لايتنوع ولا يتعدد فى النوع الواحد ، فهو اذن طبيعة .

فالمساعدة على إبراز كوامن النفس ، فى القوى الفطرية والارثية ، وعلى تخصيص العام وتعيينه ، وتوضيح المبهم وجلاء الغامض فيما هو ارثى خاصة ، وعلى تنمية القوى ، لاسيما الفطرية ، وعلى تقويتها ، ثم المساعدة على حسن توجيهها . وتركين المتناقضات فى ظواهرها الانفعالية وغيرها ، لاسيما فى الشباب ، هذه كلها من إمكانات التربية ، وهى إمكانيات واسعة الآفاق ، لاتتحقق على وجهها الصحيح الاكمل إلا بما يقوم به الشاب المتربى نفسه ـ معتمداً على ما يمنحه الوالدان والمربون من وسائل ، وما يشعر بوجـــوده فى نفسه من قوى . وهى امكانيات حرية بأن يثق بها المربون والشباب ، ولكن ضمن حدود الفطرة التى تتسع مجالا واسعا للاكتساب فى الانسان ، وضمن حدود إمكان تشجيع الارث أو مقاومته حسب قوته وضعفه ، وخيره وشره ، فلا تكلف الشباب فوق طاقته ، فتطلب نظم الشعر من لايساعده خياله على ذلك ، ونمنع من نظمه من خلق ليكون شاعرا ، مثلا ! ... (وسيأتى هذا البحث زيادة فى الايضاح فى الفصل الخامس ، فصل التوجيه) .

أما الوسائل المباشرة التى تساعد على تحقيق هذه الامكانيات التى سبق ذكرها ، فانما هى الفكرات المثيرة والمحركة ، وهى تتفاعل فى الافئدة ، أو السرائر فالفؤاد هو مستقر هذه التفاعلات النفسية ، ولذلك قال الأخطل :

لا تعجبنك من خطيب خطبة حتى يكون مع الكلام أصيلا
ان الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

٥ — الفؤاد ، أو السريرة

كل يعلم ان نمونا الجسمانى يتوقف ، فى قوته وضعفه ، على نسوع الاغذية التى نتناولها ، وعلى قوة الاجهزة التى تعمل على هضمها وتمثيلها ولا يجهل أحد منا كيف تغيب هذه الاغذية عن حواسنا ، بعد أن تتجاوز الحلقوم ، عقب المضغ ، وكيف تتم عمليات الهضم الاول فى المعدة ، حيث يتحول الطعام الى كيموس ، والثانى فى الامعاء ، فيتحول الى كيلوس ، تتم بعدها عمليات الامتصاص والتمثيل . واذا كنا نشعر بعملية المضغ ونسيرها على وعى منا ، فان سائر العمليات ، من هضم وامتصاص وتمثيل ، تتم دون أن نشعر بها ، وتسير دون أى وعى من قبلنا .

ويظهر أن ما يتم فى النمو النفسى يشابه الى حد كبير ما يتم فى النمو الجسدى . فهناك عمليات تدخل فى دائرة الوعى ، أو الوجدان ، وعمليات تخرج عن دائرة الوعى وتستقر فى الفؤاد[1] ، أو السريرة .

ففى عالم النفس مظهران : مظهر الوعى ، أو الوجدان ، وهو يشمل كل مانجده فى أنفسنا من تفكير وإحساس وشعور ونزوع ، ويحوى الفكرات

---

(١) سبق وأوضحت فى محاضرة ألقيتها عن الضمير فى المجتمع وفى التربية عن تفضيلى لكلمة الفؤاد عن اللاوعى لأنها وردت فى الآداب العربية معبرة عن هذا المعنى ، لا سيما ومادة فأد تفيد الخفاء والانضاج ، كما يتبين من شعر الاخطل أعلاه ومما سيأتى من أمثاله .

التى نتلقاها وتتفاعل تفاعلا أوليا مع فكرات قديمة ، اختزنتها الحافظة ، فتتم بذلك عملية تقابل عملية المضغ ، فتأخذ الفكرة الجديدة بذلك شكلا خاصا يسمح لها باجتياز ميدان الوعى الى ميدان آخر هو ميدان الفؤاد (أو اللاوعى) ، وهو المظهر الثانى لعالم النفس .

اثبت العلم الحديث أن ميدان الفؤاد ، على خفائه ، أوسع مدى من ميدان الوعى ، وأشد تأثيرا فى تسيير الانسان فى سلوكه . هو مستودع أسرار الحياة الانسانية ، وفيه تكمن سريرته وبصيرته ، وضميره ونبوغه وعبقريته ، فلا عجب اذا كان مصدر الوحى والالهام ، ومقر نضج المعرفة والفكرات المحركة والمسيرة . فيه تهضم الافكار والمعارف ، كما تهضم الاطعمة فى المعدة والامعاء ، وفيه يتم تفاعل هذه الافكار ، بالمقابلة مع عليتى الامتصاص والتمثيل ، فينسجم ما تماثل منها ، وقد ينقلب الكثير منها الى قوى تتحول الى نزوع فميول ، تصبح هوى ، او تتصل ثانية بالارادة فى الوعى ، فتسيطر النفس الامارة بالسوء ، اذا تحكم الهوى وأبعد الميول عن التفاعل مع الارادة فى وعى صحيح ، فيكون الانسان عبد نفسه وعبد الهوى ، أو تتحرر النفس اذا تمت لميولها صلتها الوثيقة بالارادة ، فيكون الانسان حرا واعيا وسيدا لنفسه ولأعماله .

فترى أن الفؤاد هو سر الحياة فى جميع المظاهر الانسانية وأعمالها .. فلا غرابة إذا جعله الشعراء موضع كتمان السرائر ، على حد قول أحدهم :

إذا ما الخل لم يحفظ ثلاثا فبعه ، ولو بكف من رماد

وفاء للعهود ، و بذل مال وكتمان السرائر فى الفؤاد

والتربية الصحيحة ترمى الى مساعدة المتربى على نقل المعارف والفكرات من ميدان الوعى الى ميدان الفؤاد . وبذلك عرف غوستاف لوبون التربية فى قوله : « التربية هى فن نقل ماهو وجدانى الى الفؤاد » .

فعلى حسن اختيار الفكرات ، واستعمال الوسائل الفعالة لنقلها الى الفؤاد ، يتوقف حسن التصرف والسلوك فى الحياة . فالفكرة تصبح بذلك قوة تثمر العمل ، ولا تنس ، أيها الشاب ، ان الفكرة هى التى تدير العالم . وانها ، إذ تنفذ فى أعماق نفوسنا ، قد تشتد قوتها لدرجة تكافح معه الفؤاد ، جملة ، فتبدل فى انعكاساتنا وميولنا ! وبتأثيرها على نزوعنا تؤثر باتجاهاتنا ، فيتبدل سلوكنا ، خيرا أو شرا ، حسب نوع الفكرة المؤثرة المحركة . وإنما تؤثر الفكرة فى الفؤاد بقوة انفعالنا ، الذى هو مظهر شعلة نار الشباب . فعلى اتزان هذا الانفعال يتوقف اتزان الأعمال والسلوك ، فاذا أفرطنا فيه لدرجة نفقد معها سلطاننا على أعصابنا ، فقدت النفس به اتزانها ، واذا فرطنا به لدرجة تتخدر معها أعصابنا ، فقدت النفس ذاتها ، أو تفقد بذلك كل وسيلة للاباء وحفظ الكرامة . فللانفعال أثره الكبير فى هزة القلب هزات عنيفة تنقلب معها النفس وتتبدل أحوالها حسب اتجاه الفكرات ، نحو فضائل الأعمال أو رزائلها ، وإنما يضمن الخير فى الاتجاه بقدر ما نظل مسيطرين على أعصابنا ، حتى فى أشد حالات الانفعال .

فليكن هم الشباب ، فى تربيته لنفسه ، العناية بحسن اختيار الفكرات المحركة ، وبمثل هذه العناية يضمن الوالدان والمربون أعظم الفوائد لمن يعنون بتربيته من الشباب . ولنحفظ جميعا ، آباء ومربين وشبابا ، ان الشباب إنما يبلغ حريته الداخلية التامة ، بقدر مايوفق باختيار هذه الفكرات ، وبقدر مايوفق مربوه باختيارها له . وعندئذ ، وبفضل الوسائل التى تستخدم لايصالها إلى الفؤاد باثارة انفعال النفس الداخلى المتزن ، وبها ، كفكرات محركة ، من قوة فى إثارة مافى الفؤاد ، وإيقاد نيران الثورة فيه ، تتم الأعجوبة

بعد جهود متواصلة ، وبفعل فكرات محركة متسلسلة ، فتستحيل الحياة ، فى الشابات والشبان ، إلى مظهرها الانسانى الصحيح ، فى أوج قوته ، وتتحقق الرجولة والأنوثة ، فى أصح ، وفى أصدق مايجب أن تكون عليه الحياة الانسانية فى رجولتها وفى أنوثتها .

وأصدق ماننصح به الشباب ومن يقوم على تربيتهم ، فى اختيار الفكرات المحركة ، أن يتجنبوا الابتعاد عن الواقع ؛ فالفكرات لاتخلق ولا تنشىء أى كيان من العدم ، وإنما تساعدنا على أن نحقق ماتحوى ؛ فاذا لم تتصل معانيها بالواقع تصبح وهما ، وان أثرت ، فانما تؤثر فى نقلنا الى عالم الأوهام فنضل طريقنا ، ونبعد عن سبيل الهداية والتحرر ، وبالتعلق بالأوهام والأباطيل تظلم جوانب النفس فى فؤادها ، فيظلم بظلامها الضمير الانسانى ، ومقره الفؤاد ، فتكثر الشرور وينتشر الفساد .

وصلة الضمير بالفؤاد من أوثق ماتكون عليه الصلات ، فلا غرو اذا اتخذه أحد الشعراء الأقدمين شفيعا إلى فؤاده فقال :

إن التى زعمت فؤادك ملها خلقت هواك ، كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم ، فصاغها بلباقة ، فادقها وأجلها
منحت تحيتها ، فقلت لصاحبى : ماكان أكثرها لنا وأقلها !
فدنا وقال : لعلها معذورة من بعض رقبتها ! فقلت : لعلها !
فاذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الضمير الى الفؤاد ، فسلها !

رحم الله ابن اذينه ، ذلك البدوى الذى لم تفته الصلة بين الضمير والفؤاد فجعله شفيعه اليه ؛ وهو فوق ذلك يرعى مصدر الوساوس فى فؤاده ، وينسب الملل إلى الفؤاد نفسه ، وماذا يقول العلم اليوم فى تعليل أسباب الملل

وما يشابهه من أحوال النفس وفى بيان مصادر الوساوس الخفية ؟ أو بعد ذلك أخيرا فى غير الفؤاد ، أو اللاوعى ! . . .

فما أروع الأدب فى شاعريته يؤيده العلم ؟ وما أقوى العلم تزيد فى توضيح معانيه شاعرية الأدب . ولا غرابة إذا سبق الشعر العلم بادراك هذه الحقائق فشاعرية الشاعر ، وقريحة الأديب ، وهما تبلغان الأوج فى العبقرية ، انما تستقر كلها فى فؤاد النفس وفى فؤاد النفس عبقر ذاتها ، بجنها وشياطينها ومن لف لفهم من العفاريت ، فيوسوسون ماشاء لهم اهمال الشباب أن يوسوسوا ، وينحرفوا بسير النفوس ، إذا لم تتدارك الأمر الفكرات الكبيرة ، وهى وحدها القادرة على حبسهم فى قمقم سليمان الحكيم ، فترتاح منهم النفس ، مادام لهذه الفكرات فى النفس البشرية أثرها ؛ وما دام الايمان بالحق والخير والجمال يقويه الاعتقاد بمن ينتهى عنده ويتلاقى ، فى وحدة شاملة ، الحق المطلق ، والخير الأعظم والجمال الأسمى ، ألا وهو الله ، يسمو بالانسان الى عالم الملكوت ، فينعم بنفسه وروحه ، بلا نهائية الطوبى الروحية ، ويستشعر رغد طمأنينة الخلود فى قلبه ! . . .

وفى هذه الأحوال ، حين ترفع الانسان اليها الفكرات الكبيرة ، تكون الأنوثة أو الرجولة فى الشباب تكونا صحيحا متزنا صادقا ، نجد خيره وبركته ويمنه فى حياة الأسرة وفى تحقق الفكرة الوطنية والتضامن الاجتماعى والانسانى ، فى عالمنا هذا ، عالم الأرض ، فتنعكس فى أرجائه ، آنئذ ، أشعة سماوية ترسم فى تلك الأرجاء صورا رائعة من مشاهد الحياة فى جنان الخلد ، جنان الأبرار السعداء الآمنين ! . .

هكذا يكون أثر الفكرات الكبيرة فى النفس ، إذا تم تفاعلها فى الفؤاد تفاعلا انسانيا داخليا مستمرا . فهى الغذاء فى حالة الصحة ، وبها العلاج فى

حالة المرض والانحراف ، وبها يتلقح الانسان ليقاوم تأثير جراثيم الأمراض المخلقية السارية والأوبئة الوافدة كما يتلقح ضد الجدرى والتيفوئيد وغيرهما وفعل هذه الفكرات خفى فى داخل النفس ، ومن المعلوم أن الفكرة لا يتحقق وجودها فى النفس البشرية الا باتحادها بها وبانسجامها بعناصر كيانها، فتصبح الفكرة وقوة التفكير ومن يفكر كائنا واحدا ، دون تجزئة ولا تقرين .

يتعرض الشاب فى حياته ، ولا سيما فى أحوال الانفعال وتكون الرجولة فيه بتفاعل الفكرات فى داخله ، لكثير من التجارب ، وللتأثر بكثير من الاوبئة الخلقية، والامراض السارية ، التى تهدد كيانه النفسى بالانهيار .فهو فى صميم المجتمع ، لا يمكن فصله عنه لانقاذه من ويلات القدوة السيئة والمغريات من المفاسد ؛ ولو أمكن فلا يجوز ، إذ لا يستطيع الحياة منعزلا ، ولا العيش منفردا ، فهو اجتماعى بالضرورة . فلا بد من وسيلة تكسبه المناعة النفسية ، فتحفظه من التأثر بالعدوى مع استمراره على الحياة والعمل فى خضم هذا المجتمع بفاسده وأوبئته الخلقية ، ولا يتم اكتساب المناعة الا فى داخله . أى فى فؤاده ، حيث تصبح الفكرات المتجانسة مع تلك الامراض والاوبئة ، أو المستمدة منها ، لقاحا واقيا . ففى داخل فؤاد نفسه وتفاعلاته يتقوى ويعالج ويلقح ، فيكتسب المناعة ويشفى نفسه من أمراضها ، فدواؤه فيه ، وداؤه منه على حد قول الامام على :

دواؤك فيك ، ولا تشعر وداؤك منك ، ولا تبصر !

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر !

فاذا كان ذلك كذلك ، وكانت الفكرات ، فى تفاعلها فى النفس ، هى الاسس المتينة التى يرتكز عليها بناء النفس الصالحة، وشفاؤها ومناعتها ،

فمن يقوم بهذا التفاعل ، وكيف يتحقق ؟ . . . وهل يكفي أن تنتقل الفكرة الى الفؤاد ليتم تفاعلها مع عناصره ؟ . .

لاشك أن لحصول هذا التفاعل ، وعلى وجهه الأتم شروطا . فليس لجميع الفكرات التي يتلقنها الشاب ، مباشرة أو بواسطة المربين، حظ امكان الاندماج في الفؤاد ، الشرط الاول في التفاعل . فمنها ماتختزنه الحافظة فلا ينتقل الى الفؤاد ، ومنها ماينتقل ويتناثر فيه ، فلا يكون لها أي أثر في السلوك . ولهذا نجد كثيرا من المتعلمين ، بل العلماء ، يحفظون كثيرا مما أنتجه أسمى تفكير في العالم ، ولا يصطبغون بأية فكرة من تلك الفكرات السامية ، فسلوكهم يتناقض تناقضا تاما مع تفكيرهم ، فهم يدعون لمبادىء لا يعملون بها . وهؤلاء هم الذين استعاذ النبي بالله منهم بقوله : « أعوذ بالله من عالم اللسان جاهل القلب » . ولانجد صعوبة في أن ندرك أن المقصود بالقلب هنا انما هو الفؤاد . وكل معرفة لاتندمج بالفؤاد ، ولا تتفاعل فيه ، لاتتحول الى صبغة في النفس ، وانما تظل أقوالا تردد لتخدع ، وما أشقى أمة يخدعها أمثال هؤلاء الذين استعيذ منهم بالله كما يستعاذ من الشيطان الرجيم .

كما أن مايتناثر من تلك الفكرات في الفؤاد دون أن يندمج فيه بله أن يتفاعل ، على الرغم من انتقاله اليه ، يكون فيه ناحية مظلمة ، إذا اتسعت أظلمت بها النفس البشرية كلها ! إذ للفكرات من حيث كيانها نورانية تفقدها بتناثرها ، ومتى فقد النور استولى الظلام . وانما يعبر عن ظلام النفس ، في نظري ، لؤمها . وما أشد اللؤم أثرا في تأخر الفرد وانحطاط الأمم ، لاسيما إذا تم ذلك في نفوس الحفظة من العلماء على ماتقدم ؛ وهؤلاء هم علماء السوء الذين قال فيهم الشاعر متمثلا :

يا علماء السوء ! ياملح البلد ما يصلح الأكل ، إذا الملح فسد ؟

وإذا تم الاندماج بالفؤاد ، واشتد بالتفاعل ، فما هي هذه الفكرات التي اندمجت وتفاعلت ؟ . . . أهي الفكرات الحقيرة الصغيرة ؛ أم هي الفكرات السامية الكبيرة ؟ . . . فعلى نوع الفكرات المندمجة وعلى قوة تفاعلها يتوقف تكون النفس البشرية حقيرة صغيرة ، أو عظيمة كريمة . فاذا كانت تلك الفكرات من النوع الحقير الصغير ، أصبحت داء يحتاج للدواء ، لا ما أردناه من أن تكون دواء يشفي من الداء . وهنا قد لا ينفع النصح ، وقد لا يجدي الارشاد ، على ما قاله الغزي :

متى يعضى لجالينوس قول اذا احتاج الدواء الى دواء

فاذا كان اندماج الفكرات بالفؤاد شرطا أوليا في تفاعلها ، فحسن اختيار هذه الفكرات هو الشرط الأساسي في انتاج هذا التفاعل لروح إنسانية صحيحة في المرأة والرجل .

ولحسن الاختيار شروط أهمها اثنان :

(١) حسن إدراكها إدراكا كليا ، لا جزئيا ، وقد تقدم معنا أن الادراك الجزئي يولد الأوهام والخرافات ويقلب وجه الحقائق .

(٢) التمييز بين التي تنسجم مع مايقتضيه تنظيم الحياة في المجتمع والسمو بالنفس بالفرد من مبادىء وسلوك ، وبين تلك التي تنادي بالفوضى في الحياة الاجتماعية ، فتهدم المجتمعات وتهد كيانها ، وتدعو لفساد الفرد وتدنيه وانحطاطه ، فيكون عضوا فاسدا أو مشلولا في مجتمعه .

وفي تحقيق هذين الشرطين يحتاج الشباب الى مساعدة الوالدين والمربين ولتحقيقهما يحتاج المجتمع للصالحين من هؤلاء . وفي الأخطار التي تنتج عن

سوء الادراك والتمييز ، فى الافراد وفى الأمم ، تتضح لنا درجة فظاعة الجريمة فى التساهل فى اختيار المربين ، لا سيما للشباب .

ولا يتم التفاعل فى الفؤاد على وجهه الأكمل ، إلا إذا تحقق شرط آخر هو الانفعال بتذوق الفكرة تذوقا قويا يهتز معه القلب ، فتتحرك النفس حركة طوعية تثير نار الفؤاد ، وبفضل حرارة هذه النار يحصل النضج ويتم التفاعل العميق ، ومن ثم تنبثق النزعات والميول والعواطف ، متفقة بما تنطوى عليه من مقاصد ونيات مع نوعية تلك الفكرات المتفاعلة ، خيرا أم شرا .

وهنا يجب أن يتحقق شرط أخير ، وهو الوعى فى السلوك . فيجب أن يكون سلوكنا واعيا ، وهذا يتم بعودة الصلة بين الفؤاد فى ميوله ونزعاته وعواطفه ، وبين النفس الواعية ، أى الوجدان ؛ ومظهر هذه إنما يتجلى بالحرية والارادة ؛ فتنصرف نزعاتنا وميولنا وعواطفنا للتحقق والعمل بحرية تستمد قوتها من الارادة الصحيحة الصادقة . والا فان تحقق النزعات والميول والعواطف تحققا مباشرا ، دون التقيد بالواعية ، حرية وإرادة ، يجعلنا نظهر بمظهر المجبرين ، إذ تسير بطريق الهوى ، فتصبح النفس نفسا أمارة ، وإن كان فى بعض الأعمال الناتجة عنها شىء من مظاهر الخير ، على ماوفق إليه الشاعر ، فى وصف من هذه حاله ، من الباذلين المانعين ، فى قوله :

يعطى ويمنع ، لا بخلا ولا كرما وانما نزعات من وساويس !

ولم يجعل الفلاسفة والمصلحون العلم شرطا فى تحقق الفضيلة إلا تأييدا لصحة هذا الشرط ، وهو الوعى فى السلوك ، على ما أثبته العلم الحديث فى تحليلاته الواعية .

فهل تدفع النهضة شبابنا اليوم للتأمل فى أحوالهم النفسية ، وفيما يوجب عليهم تكونهم الفردى والاجتماعى من تفكير وجهود ، ليعملوا على بناء

نفوسهم بناء جديدا يتفق مع مقتضيات استقلالهم الذاتى والوطنى ضمن دائرة ضرورة التجاذب الانسانى لتحقيق تعاون عالمى صادق يحقق السلام على هذه الأرض ؟

لا أظنهم إلا مندفعين لهذا التأمل ، مستشعرين أهمية عملية الفكرات التى ينفعلون بها ، فلا يألون جهدا فى حسن اختيارها ، عن إدراك صحيح وتمييز صادق ، واثقين بأنفسهم وبامكانات التربية وبمن يقوم على تربيتهم ، وهو واثق بهم وبنفسه .

فعلى الشباب ، وعلى من يقوم على تربيته ، أن يشعر كل منهم بالتبعة الملقاة على عاتقه ، فلا يفرط ولا يفرط ، بل يترك مجالا تقوم فيه الطبيعة الانسانية بعملها والحياة بتفاعلها .

ولنختم بحثنا هذا — وإن كان فى النفس ميل للأطالة ، نمتنع عن تحقيقه الآن خوف الاملال — بذكر حكمة عربية لا تزال على جدتها ، مع تطاول القدم عليها وهى :

« لاعب ولدك سبعا ، وعلمه سبعا ، وعاشره سبعا ، ثم اترك حبله على غاربه » .

فما أصدق هذه الحكمة ، فى معناها ، إذ تجعل الاستقلال الذاتى نتيجة طبيعية للتربية ! فما أروعها فكرة تجعل دور الشباب دور فطام ، يصبح الشاب فيه عشير والديه ، فيتهيأ لاستقلاله فى عمله وحياته ، على أن يكون برا بهما .

وهنا نتصل بأفق جديد من آفاق هذه القضية ، قضية الشباب والحياة ، وهو أفق التوجيه ، فكيف يوجه الشباب نفسه ؟ ...

الفصل الخامس

الشباب فى توجيه

التفتق بوحى الحياة فى الشباب   لا حقـــــارة فى العمل

أهمية التوجيــــه وغايته   التوجيه المسلكى والمهنى

obeikandi.com

obeikandl.com

خلاصة ما تقدم

أزمة الحياة أشد وطأة على الانسان من أزمة المعيشة . وظواهر الحياة تتصل بالحضارة . وبالمدنية تتصل أسباب المعيشة . وإذا صلحت المعيشة وسيلة لتقدم الحضارة ، فانها لا تصلح غرضا لذاتها :

واليقظة الواعية فى الأمم ، ولاسيما فى شبابها ، تنقذ الحضارة الانسانية من ويلات المدنية وفسادها . والخطر كامن فى اليقظة البلهاء ، إذ تعود بها الشعوب والأمم الى النوم والاستسلام . والشعلة المتقدة فى داخل ذات الشباب تبعث فى نفوسنا روح الأمل بحسن نتائج وثبات انطلاقه ، وبذلك تتحقق الرجولة فيه . فهو إمكانيات يجب أن تتحقق فى أحسن وجهاتها . وهنا تنشأ المشاكل التى يجدها الشباب فى نفسه وفى مجتمعه .

فالشباب مجموعة تناقض واضطراب وانفعال وارتباك ، ينتج عنها حيرة وثورة وصراع . والمهم فى تربيته تحقيق التركيز فى تناقضاته والاتزان فى سلوكه .

ولا يتحقق هذا الاتزان وذاك التركيز إلا بقيام كل من المربين والشباب بالواجب الطبيعى فى تحقيق تكون الرجولة فيه ، أى فى تربيته . والطبيعة تقضى بأن يقوم الشباب بتربية نفسه ، وأن ينحصر عمل المربين بمساعدته وتهيئة وسائل التربية .

وإذا طالبنا بحرية الشباب ، ليستطيع القيام بواجب تربية نفسه ، شاعرا بالتبعة ، فاننا لا نقصد بذلك الفوضى ؛ فالحرية شىء والفوضى شىء آخر . فالأولى بناءة والثانية هدامة . وإنما يتزن العمل التربوى بين المربين

والشباب يتبادل الثقة ، وبالثقة بالتربية وإذا أكدنا ضرورة تحميل الشباب تبعة تربية نفسه ، فلأن التفاعل الذي يتعلق به السلوك انما يتم في فؤاده . وعلى انفعاله هو بالفكرات المحركة والمثيرة للتفاعل وللميول والسلوك تتوقف أهمية التفاعل ودرجته ونتائجه . فلنساعده نحن على تربيته لنفسه وعلى توجيهها .

١ — لنشق بوحي الحياة في الشباب

في مساء يوم ، وفي سهرة عائلية ضمت بعض الأصدقاء ، شكا الينا أحد الحاضرين ابنه ، وهو ولد ذكي ونجيب ، « ينزع الدبس عن الطحينة » حسب تعبيره ، ولكنه لا يرغب في العلم والثقافة ، بل يفضل الصنعة . وهنا بدأ الأب يتنهد معربا عن ألمه بقوله : « انني أريد له الخير ، وأتمنى أن يصبح أستاذا أو طبيبا أو محاميا أو مهندسا أو موظفا ، ولكنه يفضل أن يكون نجارا . صرفت المبالغ من المال حتى نال شهادته الابتدائية ، وانني على استعداد تام لأن أستمر في الانفاق عليه حتى ينال البكالوريا والشهادة العالية ، ولكنه لا يعرف صالحه ، فهو مصر على الدخول الى مدرسة الصنائع ، أو العمل في أحد المصانع . ما أشد شقاءه ! انه يفضل الجهل على العلم ، ويختار حقارة العمل كصانع ، على شرف الوظيفة أو الطبابة ! ... » .

« ما أسعد صديقي فلان ، فان ابنه أطوع له من بنانه ، فيداوم على المدرسة ، وابني متمرد لا يذهب اليها إلا نادرا ، وخوفا من الضرب . مع أن ابني أذكى من ابن ذلك الصديق بدرجات » .

كان هذا الرجل الشاكى صادقا فى كل ما قاله وادعاه . فقد تسنى لنا التعرف بولده فؤاد ، وبابن صديقه جميل . وقد ثبت لدينا أن فؤادا أشد ذكاء وأنشط حركة وأسرع خاطرا من جميل ، الولد العادى ، فانه عادى الذكاء ، بطىء التفكير ، لا يتفوق إلا بقوة حافظته وبجلده على الدرس .

سألنا فؤادا عن سبب كرهه للعلم ، فأجاب : أنا لا أكره العلم ، بل حبه ، ولكن العلم لا يطعم خبزا ، فلا بد للانسان من مهنة يكتسب بها معيشته . وأنا مع حبى للعلم ، لا أميل الى المهن العلمية ، كالطب والمحاماة والهندسة وغيرها ، بل أميل الى العمل اليدوى فى المصانع . إننى أشعر بلذة فائقة كلما قمت بعمل يدوى . وفى مدرسة الصنائع التى اختارها يعلمون العلوم . وما يمنعنى متى بدأت عملى عند خروجى من المدرسة من أن استمر على تحصيلى الذاتى للعلم ، كلما سنحت الفرص ؟ اقتنعنا جميعا بحجة فؤاد ، واستطعنا اقناع والده ، فادخله مدرسة الصنائع ، ولكن على مضض . فاتفق بذلك عمل فؤاد مع اتجاهه ، وشعر بطمأنينة نفسه ، وقد انسجم ميله مع توجيهه ، فاستعاد نشاطه ، وأخذ يعمل بجد ، وظل مستمرا على الاجتهاد دائبا على العمل حتى نال شهادته ، وبدأ عمله المحبب اليه .

أما جميل ، فقد كان يميل الى المحاماة ، ولكن أباه يريده طبيبا ، ولم يكن لاختيار الأب أى سبب يتعلق باستعدادات الولد أو ميوله ، وإنما كان ذلك على أثر مراجعته لأحد الأطباء الاختصاصيين فى عيادته . فقد دفع لذلك الطبيب خمسا وعشرين ليرة لبنانية ، تعويضا عن اجراء الفحص ووصف العلاج ، مع أن عمل الطبيب لم يستغرق أكثر من ربع ساعة . قام هذا الوالد على أثر مراجعته للطبيب بعملية حسابية رائعة بنتائجها ، اذ حسب لكل ربع ساعة مبلغا معادلا للمبلغ الذى دفعه ، وقدر للعمل عشر

ساعات فى اليوم على الأقل ، فوجد الأرباح عظيمة تفوق حد التصور ، وتتجاوز حدود الربح من أى مهنة كانت . فأراد هذا الخير لابنه ، فلذة كبده .

حاولنا أن نرد هذا الوالد للصواب ، مؤكدين بأنه لا يتسنى لكل طبيب مثل هذا الربح ، كما أن حسابه كان مخطئا اذ فرض فيه الاستمرار ، ولم نخف عنه أن المحامين اللامعين كثيراً ما يربحون أكثر من ذلك ، وأن مهنة المحاماة أكثر موافقة لاستعدادات ابنه وميوله ، ولكن لم يكن لهذه الحجج والبراهين أى تأثير فى هذا الوالد . فهو قد دفع المال وأحس بعظمة الطبابة وهيبة الطبيب ، فأراد لابنه أن يتمتع بخيرات هذه المهنة الشريفة ، ولا مرد لإرادته . فلا يجوز أن يكون لقابليات ابنه ورغباته أى صلة بهذا الاختيار . وهكذا تم ، ونال الابن الشهادة التى أرادها له أبوه ، بفضل قوة ملكة الحفظ عنده ، وبقوة المثابرة بجلد على الدرس والمطالعة .

هذا ما جرى منذ عشر سنوات تقريبا . ويظهر أن هذه السنوات العشر كانت كافية لاظهار نتائج تصرف كل من الوالدين مع ابنهما : تصرف كانت الخطة فيه مراعاة ميول الولد وقابليات استعداده ، وتصرف لم ترم الخطة فى تحقيقه الا لأمر واحد هو مسايرة هوى الوالد وتنفيذ رغبته ، دون أن تكون لرغبة الولد وقابلياته أى اعتبار أو تأثير .

فاذا بنا ، بعد مرور السنوات العشر ، نجد فؤادا الصانع ناجحا فى أعماله ، محققا لأهدافه ، يجتاز الصعوبات بشجاعة ، والبشر طافح على وجهه لا يرى الا وابتسامة التوفيق مرتسمة على ثغره ، لا تفارقه . انه عامل صالح لا يهمه مقدار ما يربح بقدر ما يهمه الاتقان فى عمله . انه يعمل عملا يحبه ، فهو يغار على نتاجه غيرته على نفسه وشرفه ، دون أن يكترث بما

يعترض سبيله من عثرات ، أو بما يلقاه من مكاره . يعمل بصبر وثبات ، والبشر الأمل قائده ، فكيف لا يغتبط التوفيق بمحالفته ؟

وقد استطاع فؤاد أن يستمر فى ثقافته الذاتية ، فأصبحت عميقة قوية رحبة ، ولم لا تصبح هكذا وقد اقترنت بخبرة الحياة وتجاريبها ، ونالها من تأثير المهارة العملية أجمل أثر ؟ فما رأيك ، وهو قد كافح ، وكان لكفاحه فى ثقافته أوفى نصيب ؟ ...

أما جميل ، فانه ما نال الشهادة حتى فتح عيادة كبيرة ، أثثها له والده بسخاء ، باذلا آخر فلس مما اقتصد فى حياته . وماذا عليه ؟ فهو سيستعيد الفلس مئات ، بل ألوفا ، دون جهد أو تعب ! ...

والواقع ، أن الروعة فى مظهر العيادة قد أغرى الناس فى البدء ، فتكاثر عليه وفود المرضى . ثم بدأ العدد يتضاءل ، بعد مدة لم تطل ، اذ أدرك هؤلاء الناس ، بعد الاختبار ، سوء تصرف الطبيب وضيق آفاقه .

ان هذه الشهادة المعلقة على أحد جدران عيادته تنبىء ، ولا شك ، أن جميلا قد قام بدراسته الطبية ، وأنه تحمل الفحوص بنجاح . ولكن ، انى لها أن تثبت أن جميلا أصبح طبيبا . ان شهادة القيام بالدراسة الطبية ، وبتقديم الفحوص اللازمة ، تمنحها الجامعة ، أما الشهادة التى تثبت أن صاحبها أصبح طبيبا ، فلا تمنحها سوى الحياة . تلك شهادة جامعية مكتوبة ، وهذه شهادة عملية مدركة . والفرق شاسع بين ما هو مكتوب يقرأ ، وبين ما يدرك عمليا ويعتقد .

اعتمد جميل فى الحصول على شهادة دراسة الطب على محافظته واجتهاده ومثابرته ، ولم يكن باستطاعته الاعتماد على قلبه ، مصدر حياته ، كما اعتمد على قلبه فؤاد رفيقه . وكل عمل يقوم به الانسان ، ولا صلة له بقلبه ،

هو عمل فاشل ، لا ترتاح اليه النفس ، ولا يساعد على الابداع والابتكار وسرعة الخاطر ، وهذان شرطان أساسيان من شروط النجاح : ارتياح النفس الى العمل ، ونشاط الابداع والابتكار .

ما شعر جميل ببوادر الاخفاق ، حتى أخذ يتعاون مع أبيه على الخداع والاحتيال ، فاشتهر أمره ، وكاد يفقد ، أكثر من مرة ، شهادته التى بها يعتز ، وكاد يصبح السجن مأواه ! ... ومن يدرى ؟ ...

وهكذا ، فان توجيه الشباب فى اتجاهات لايتطلع اليها قلبه ، ولا تهيئه اليها قابلياته فى استعداده الفطرى ، خطر على الفرد ، اذ يمنى بالاخفاق والفشل ، وخطر على المجتمع ، اذ يكثر فيه ، اذا عم هذا الوباء الاجتماعى عدد الأشرار المخادعين ، وشغب الأفراد العاطلين عن العمل ، ولا سيما المتعلمين منهم . ولا نغالى اذا قلنا ، ان فى انتشار وباء التحكم فى التوجيه يؤدى الى نوع من الفوضى يتكون فيها كثير من الشرور التى نشكو منها ، ويشكو منها العالم .

فخطأ الوالدين فى ارادة التحكم فى توجيه الشباب فى أبنائهم ، يماثله ماسبق وبيناه من خطئهم فى الرغبة فى تنشئته كما يشتهون .

واجب الوالد ينحصر بالعناية بتعليم ابنه وتثقيفه ، وبافادته من تجاربه واختباراته ، وبدفعه للتمرن على عمل يكون وسيلة لكسب معيشته بذاته وعلى الحياة الباقى ! ...

أوضح للشباب فى بنيك ، أيها الوالد الحكيم الحنون ، طريق الخير وطريق الشر ، وشجعهم على سلوك الطريق الأول باقدام ، وعلى النكوص عن سلوك الآخر بادراك واقتناع ، وحاول أن تناقشهم فيما يظهرون من ميول ، وبين لهم رأيك معللا أسبابه ، ولكن إياك أن تتحمل أنت ،

وحدك ، تبعة مستقبلهم ، دعهم يشعرون بالتبعة ، فلا يلقون عليك اللوم كلما اعترضتهم صعوبات الحياة ، أو شعروا بالضيق والضجر نفرة من عملهم واعلم انه يتعذر على من يعمل بتأثير الضغط ، لا استجابة لحريته وانطلاقه أن يشق لنفسه طريقا واضحا فى الحياة ، ومن تكون هذه حاله يستولى عليه الملل والضجر من عمله ، وتكثر شكواه ، لأنه لا يشعر بتبعة اختياره له ، هذا قانون من قوانين الحياة فتعمق فى فهمه ، وانظر فيما تلاحظه حولك ، تثبت لك الوقائع صحته . وتأكد أن فى تحديك لميول الشباب فى بنيك ولاستعدادهم الفطرى ، وفى تحكمك فى مستقبلهم ، قهرا وقسوة وتعريضا للاخفاق ، ومن هذا الوضع ينشأ العقوق ، وهـــذا ما يتذمر منه الآباء والأمهات دون أن يقدروا ما يصيبهم من التبعة فى عقوق أبنائهم لهم . وما العقوق إلا نتيجة طبيعية لفقد الثقة المتبادلة بين الوالدين والأبناء . والثقة وحدها هى التى تجعل الولد برا بوالديه .

فلنثق إذن ، بوحى الحياة فى الشباب ! . . .

٢ — لاحقارة فى العمل

اعتاد الكثيرون عندنا أن يجدوا فى الأعمال اليدوية حقارة وانحطاطا فلا يليق ، بنظرهم ، أن يتعاطى الشاب المتعلم هذه الأعمال . وهو ارث اتصل بنا من أزمنة كنا نرزح فيها تحت اعباء ثقيلة حملنا إياها انحطاط فى التفكير والشعور ، وضعف فى الارادة . فما كنا نحاول إدراك ظواهر الحياة على حقيقتها .

إننا نحتقر ، منذ القديم ، العامل والصانع والفلاح ، ومنذ القدم ، احتقره الناس فى جميع بلدان العالم . والغريب ، ان الانسان . كعامل

وكصانع وكفلاح ، اعتاد احتقار نفسه هو أيضا ، إذ يجد فى قرارتها مايدعوه لاعتقاد انحطاطه عن طبقات السادة والاشراف والاثرياء . فهل كان تعاطيه هذه المهن سببا لاحتقاره ؟ أو بتعبير آخر : هل كانت هذه المهن محتقرة لذاتها ؟ أم كان هناك سبب آخر يدعو لاحتقارها ؟

نظرة مجردة فى واقع الاحوال عندنا اليوم ، وفى الامس الذى نعيه ، تجلى لنا حقيقة هذه الظاهرة . من منا لايذكر عاملا أو صانعا أو فلاحا تجعله مهارته ، أو ذكاؤه وخبرته ، محترما من الناس ومن أسياده ، ومن الطبقات المترفعة التى تعتبر نفسها من سلالة انصاف الآلهة ! . . ؟ . . . ومن منا لايجد سبب ذلك فى فرضه نفسه فى المجتمع ؟ . . وكيف فرض نفسه ؟ . . ألا ترى معى أن السبب الجوهرى هو فى بروز نفسه الانسانية إذ عرف كيف يستفيد من خبرة الحياة ، فتفهمها وأصبح ذا حكمة فى تفكيره وتصرفاته ؟ وأنه كان لهذه الحكمة الاختبارية تأثيرها فى تفاعلات فؤاده عندما نقلها انفعاله الى الأعماق ، فانبثقت فى نفسه ، الشاعرة بانحطاطها ، ميول قوية جديدة ، هى ميول التحرر ، فارتفعت بها نفسه وسمت ، فاحاطتها الحياة ، وقد تحققت انسانية فيها ، بهالة من نورها الآزلى ، فانجذب الناس الى ذلك النور ، وهابوا من تكللت به هامته ، واحترموه ! . . . ثم ألا تعرف الكثيرين من هؤلاء ، وقد قلبوا أوضاع مجتمعهم ، صغيرا ام كبيرا ، واثروا فى تفكير من حولهم وفى شعورهم وسلوكهم ؟ الا تذكر من هؤلاء من هز العالم ، ودوخ زعماءه ؟ . . . اتبرأهؤلاء ، ولم يخلد التاريخ عددا قليلا منهم ، أم هم يتبرأون ، ولا يغدر وجود أمثالهم بيننا ، من الصنعة التى كانوا يحترفونها ، أو العمل الذى كانوا يقومون به ، قبل ان يقفوا على قمم الحياة ؟ . . انا نعلم أنهم كانوا ، بالعكس ، يفتخرون باعمالهم ،

ويعتمدون ما تيهم فيها ، واننا نعلم أنه لايزال من يرتفع من هؤلاء يتباهى بالأعمال التي أسس عليها حياته ، دون أن يجد في نفسه أي حقارة بسببها ! . . .

إنني لا ازال اذكر بالاعجاب والتقدير رجلا اجتمعت به في زيارة صديق في عيده ، وقد كان ذلك الرجل ملء سمعي لما كنت اسمع عن ثرائه وجاهه وطيب عنصره . كان آنئذ في سن أخرجه من زمرة الكهول ، ليدخله بعد قليل بين شيوخ العصر وكبرائه . سررت باجتماعي اليه ، وقد كنت في ابان شبابي ، وفرحت بذلك فرح الطفل يجد ما يتشوق الى امتلاكه . ولم أكن مخطئا في فرحي ، وقد استفدت من حديثه العذب الذي يستمده من خبرته في حياته ، استفادة لايزال اثرها في فؤادي إلى اليوم ، لاسيما عندما استمعنا اليه يقول موجها كلامه لصاحب الدار : إنني اشعر بارتياح كبير عندما اكون في دارك ، فلذلك اطيل زيارتي عندك . تطاولت اعناقنا ، وهو يهز رأسه هزات قصيرة متزنة متوالية ، يبعثها تأمل عميق ، انبأتنا نظرات الرجل في اثنائه ان للحديث تتمة تتعلق معها أسباب ارتياحه . تطاولت اعناقنا انتظارا للتتمة ، ولم يجعل انتظارنا طويلا ، اذ ما لبث ان أتم قائلا : بني هذا الدار على رأسي ! منذ خمسين عاما تقريبا : فقد كنت آنئذ صانع بناء ، انقل الطين على هذا الرأس ، وأشار إلى رأسه . فعملت في هذا الدار في بدء المباشرة في بنائه إلى انتهاء العمل . ما اعذب ذكريات تلك الأيام ، فقد كان معلمي البناء رجلا حكيما يحترمه الجميع ، على الرغم من أنه كان اميا ، لايقرأ ولا يكتب . انه كان ذا خبرة طويلة ، كثيرا ما كان الناس ، وكبار الناس ، يستأنسون بالاستفادة منهـا ، ويأتون لاستشارته ، في كثير من أمورهم ، وما كانوا يخفون عنه شيئا من اسرارهم ، حتى ولا البيتية منها . انه كان وقورا عفيف

اليد والنفس ، أبيا لا يتذلل لاحد ، وكان ماهرا فى عمله صادقا فى نصحه . لكنه لم يكن يعرف ، رحمه الله ، كيف يوفر المال ، انه عاش من كده وعرق جبينه ، ومات مستورا[1] . انه لم يفكر فى اكتناز المال ، ولكنه عاش عزيزا محترما ، بين زملائه وعند كبار القوم ، ومات عزيزا مكرما . ثم التفت الينا قائلا : ومن لم يسمع منكم بالاسطة ابى جورج ؟...

اننا تركنا هذه الدار فى نهاية الزيارة ، وخرجنا ونحن اكثر احتراما لذلك الرجل ، منا عند مجيئنا ، وقد ذكرت لك انه كان ملء سمعى ، وكان ملء سمع الناس ونظرهم ، ولا يزال الى اليوم ملء نفسى .

فقل لى بربك ، لو ان المهنة تحتقر لذاتها ، أكان هذا الرجل وامثاله يزهو بذكراها ؟... أو كنا نشعر فى نفوسنا بزيادة الاحترام له بعد ان عرفنا منشأه ، ومن فمه هو ، لا من أقوال الناس فيه ؟

ان المهن لم تكن يوما محتقرة لذاتها ، وان احتقرت فانما كان ذلك لاحتقار اربابها انفسهم . واذا احتقروا انفسهم فلجهلهم بحقيقتها وبامكاناتها . ان نفوس هؤلاء مكبوتة ، فهم لا يشعرون بوجودها . ومن وجد نفسه منهم نال حظه من الاكرام والاحترام .

وإذا كان كبت النفس سببا من اسباب احتقار المهن ، فهناك سبب آخر يقوى هذا السبب ويزيد فى الكبت وفى تجاهل النفس ، الا وهو نظام الطبقات وتأله من يعتقد النبل والشرف فى اسرته ، وهى انما تحدرت من رجل كان يوما صانعا أو عاملا او فلاحا ، وابلى فى الحياة بلاءه الحسن الذى

---

[1] المستور فى عرف العامة من لا يحتاج لأحد فى امر معاشه ، ولا يكون لديه فضل من مال أو ثراء .

عرفه فى اعين ابناء زمنه ، وقدروا له عمله ، فاصبح أول بان لشرف هذه الأسرة ، ويظل اشرف من ينتسب اليها ، مهما طال فى استمرار عزها الزمن .

حكى ان فيلسوفا عظيما يونانيا جاء لحضور اجتماع ضم كثيرا من الناس ، وما اقبل حتى وقف الجميع احتراما ، وفسحوا له مجال الجلوس فى الصدر محتلا المركز الأول . مع انه لم يكن اكبرهم سنا ولا اعرقهم فى الشرف ، غاظ ذلك شابا من الارستوقراطيين ، الذين يدعون الشرف ، لأنه يعرف ان هـــذا الفيلسوف فقير ، وانه ابن فلاح كان يعمل فى ارض آبائه ، فلم يتمالك نفسه ، بل انتظر فرصة ، ظنها ملائمة ، فالتفت إلى الفيلسوف وذكره ، بسخرية وهزء ، باصله . ابتسم الفيلسوف عند سماعه قول ذلك الشاب المتغطرس وقال له بدعة وبساطة : « اشكر الآلهة لأنها جعلتنى أول امرة أنت آخرها » .

وهو جواب واضح لايحتاج ، على ما اعتقد ، لاى تعليق .

فاحتقار المهن لا يتعلق إذن بذاتها كمهن ، وإنما هى نزعة ارستوقراطية ، يقويها نظام الطبقات فى الأمم والشعوب ، كما ان نفسية العامل والصانع والفلاح ، قد تشجع على تنى هذه النزعة ، مادام الجهل مسيطرا على العقول .

فهى نزعة هدامة لاتتلاءم مطلقا مع نظامنا الديموقراطى ، أى نظام سيادة الشعب ، بقوة الشعب ، ولصالح الشعب . ولا يتحقق النظام الديموقراطى مع الجهل . فلا بد من تربية الشعب تربية تبرز نفسه ، فلا تظل مكبوتة ، ليرتفع مستواه فى سلوك أفراده وتنظيم مجتمعاته ، فيشعر بالسيادة ، ولايرى فى عمله ما يخفف من شعوره هذا ، ما دام هو القوة التى يرتكز عليها كيان الدولة والأمة .

لا أدرى أية ميزة يجوز ان يتميز بها الطبيب أو المحامى أو المهندس أو الموظف أو الحاكم أو غيرهم عن العامل أو الفلاح أو الصانع ، إذا تثقف هؤلاء وعرفوا كيف يتحررون ؟ الطبابة مهنة ، والحدادة مهنة ، وكل من هذين يعمل لكسب قوته مبدئيا ، وكل منهما يستطيع الثراء والتمتع برغد الحياة بكده وبعرق جبينه . وكل منهما سيد ، يستطيع الزهو والغطرسة ، إذا احتاج الغير اليه ، وكان سخيف العقل صغير النفس ! ... الفرق هو فى ثقافة الأول وجهل الثانى . هذا صحيح ، إذ لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، ولكن اذا تثقف الحداد ثقافة أساسية صحيحة ، فأى فرق يبقى ؟... لا أظن انه يظل هناك أى فرق ، ولا أرى ان أحدهما يكون أكثر جدارة بالاحترام إلا إذا كان أكثر فائدة للمجتمع .

كنت مرة فى حفلة مدرسية ، مثل وزارة التربية الوطنية ، فقام أحد الخطباء وأخذ يندد بكثرة الشهادات ، ولاسيما شهادات البكالوريا ، مؤكدا ان الحالة أصبحت لا تطاق لأن هؤلاء المثقفين لا يجدون عملا ! . . وهنا توقف قليـــلا ثم تمم قائلا : « يؤلمنى ان أخبركم اننى أعرف شابا نال البكالوريا ، واضطر ، مع ذلك ، ان يكون فوالا ، فهل يجوز ان ينحط قدر الشهادات الى هذا الحد ؟ . . » .

وما اختتم الخطيب كلمته ، حتى وجدتنى على المنبر ، لا لأكون خطيبا ، بل لاطلب من ذلك الأديب ان يدلنى على هذا الشاب لاذهب اليه مهنئا ، ولاصافحه بقلبى قبل يدى ، عارضا عليه صداقتى ، لان صداقة من يعرف كيف يشق للمجتمع طريقا جديدا فى الحياة ، هى أثمن الصداقات . ان هذا الشاب قد شق لنا طريقا جديدا فى التفكير والشعور والسلوك ! انه يردنا الى الصواب فى تقدير حقائق الامور ؟ فلم لا نشجعه ؟ ولم لا ندعو

للاكثار من هذا الشهادات ، حتى يصبح العمال والفلاحون والصناع من حملتها ، فيرتفع مستوى الشعب ، ويعرف كيف يكون سيد نفسه وسيد بلاده ! انه شاب يستحق التقدير والتشجيع ، وهو رجل عظيم فى نفسه ، لانه يريد ان يفهم الناس عمليا : ان لاحتقارة فى العمل !

وما تركت المنـــبر ، حتى رجعت الى الخطيب الاول ارجوه تعريفى بالبطل ، فاذا به بطل وهمى حاكته مخيلته ، فصعقت أسفا ، إذ لم أجد الفكرة محققة على ما أملت ، فما أصعب الاخفاق بعد الامل ! . . .

٣ — أهمية التوجيه ، وغايته

يقال وجه الشىء ، أى اداره الى جهة ما ، وتوجه الى الشىء ، أى أقبل عليه وقصده . فالتوجيه يتضمن فى معناه أمرين أساسيين هما :

(١) الهدف الذى يجب أن يدار الشىء نحوه .

(٢) إدارة هذا الشىء نحو الهدف المقصود .

هذا فى اللغة ، ولا يبعد معنى التوجيه فى التربية عن هذا المفهوم . فهناك هدف يجب أن يجعله الشاب غايته ، وأن يرمى اليه ، ووسائل تتخذ لتوجيهه إلى ذلك الهدف : أى لاقباله عليه .

فما هو الهدف الذى يجب أن يتخذه الشاب غاية له فى حياته ، سلوكا ، وعملا ؟ وما هى طريقة اختيار ذلك الهدف ؟ . . .

وما هى الوسائل التى تجعل الشاب يتوجه الى الهدف المتفق مع امكانياته ، وكيف نحصل عليها ؟ . .

وما هى أهمية هذا التوجيه فى حياة الشباب ؟ ... ومن الذى يوجهه ؟ .

هذه هى الأسئلة التى يناط بالاجابة عليها أمر حل قضية التوجيه ، وهى مشكلة يتصل بامكان حلها اصلاح المجتمع ، وتقدم الانسانية فى حضارتها تقدما مركزا يحفظها من الانهيار ، ويدخل على نفس الفرد الطمأنينة والسكينة .

فللتوجيه شأن كبير فى تسكين اضطراب النفس ، وتركيز متناقضات الشباب وتهدئة الانفعال واثرانه ، فهو اذن وسيلة تربوية لايستغنى عنها ؛ وحرى بمن لاهدف له فى الحياة أن يظل فريسة الاضطراب والانفعال والتناقض والارتباك . وإذا تأملنا فى اضطرابات الشباب نجدها أكثر ما تكون بروزا فى الوقت الذى تتجاذبه فيه اتجاهات مختلفة ، وأهداف متعددة ، فهو لا يدرى على أى منها يجب أن يقبل ، ولا أى هدف يجب أن يكون قصده .

وإذا قلنا التوجيه فلا نحصره هنا بالتوجيه المسلكى أو المهنى ، أى التوجيه الذى يعلق به أمر اختيار المهنة التى يتخذها الانسان وسيلة لكسب معيشته وإنما نريده بانواعه من حيث السلوك والثقافة ، والاعمال الاجتماعية ، واختيار المهنة ... وان كان التوجيه المهنى هو قصدنا الأول .

فلابد للانسان من أن يكون له أهداف معينة فى سلوكه ، وهى ما تواضعنا على تسميتها بالمثل العليا ، ذات الاتصال الوثيق بالحق والخير والجمال . وقد يقتبس الانسان مثله هذه من عقائد دينه ومبادئه ، أو من المذاهب الاجتماعية وما ترمى اليه من أغراض . وقد يتأثر فى تكوينها بمطالعته لأقوال الفلاسفة أو بتذوقه لآثار الأدباء . كما قد يتأثر باختباراته أو بما يلقى عليه فى بيته أو مدرسته ... الخ ... والمهم فى تكوين هـــذه المثل أن لاتشتبه بالأوهام وهى تشتبه بها ، بل قد تصبح وهما فى الحقيقة ، اذا انفصلت عن الواقع

وعن امكان التحقيق ، وربما أدى إلى قلب المثل لأوهام التصورات الجزئية التي سبق والمحنا اليها .

لذلك كان للثقافة فى التوجيه السلوكى ، وفى كل توجيه ، أهميتها العظمى وتأثيرها الفعال . فكان من الضرورى أن توجه الثقافة توجيها صحيحا يتفق مع امكانات النشء على اختلاف درجات استعداده ، ذكاء ونبوغة وميلا فلا نضع له مناهج لاتلبى حاجاته ، مع مراعاة الفروق بين الافراد ، فيضطر لحفظ موادها دون أن يكون لها بنفسه أى اتصال . فالشاب لم يخلق للمناهج واختزان موادها ، وإنما يجب أن يتم وضع المناهج على شكل يساعده على نموه الذاتى ، وأن لايضطر لتناول مالا يقوى على هضمه وتمثيله ، لئلا يصاب بسوء الهضم ، فيمنى بالفشل ، ويصبح فريسة الامراض النفسية ، وضحية مناهج مفروضة بالتقليد ، غير مقتبسة من حاجاته ، حسب عمره ونموه ، ولا مما يقتضيه محيطه وبيئته . وما يقال فى المناهج يقال فى الفحوص والامتحانات فهو لم يخلق لها ، فلا تصلح غاية لجهوده ، وانما هى وسيلة يتعرف بها الى نفسه ، ويتفهم نتائج جهوده ، فهى كالمرآة تريه صورته ومتى أصبحت الفحوص هدفا ، ضاعت الجهود ، وضلت النفوس ، فيستولى عليها الارتباك والاضطراب .

ويجب الانتباه ، فى توجيه الشباب ثقافيا ، الى الحد الذى يجب أن يقف عنده فى المثابرة على الدرس فى المدارس . فهناك استعدادات لاتستطيع تجاوز الدراسة الابتدائية ، فلا يجوز الضغط عليها . وما ينطبق على هذه المرحلة من الدراسة ينطبق على سائر المراحل . فالثقافة لا تكترث بالكمية ، بل بالكيفية . فلا يهمنا المواد التى تلقنها الشاب ، من حيث كميتها ، وانما الفائدة فى كيفية اختيارها وتلقنها . واذا تذكرنا تفاعلات الفؤاد ، على ماسر

ذكرها ، ندرك أهمية الكيفية فى الاختيار والتلقين . لذلك قال المربون : علم قليلا ولكن علم جيدا .

اننا لانستطيع أن نعلم الشاب كل شىء فى المدرسة ، ولا نستطيع أن نعلمه كل ماسيحتاج اليه ، ويتعذر علينا فى الحقيقة معرفة ذلك . فلنلقنه كل مايستطيع ادراكه وفهمه وهضمه ، وكل مايحتاج اليه حسب عمره وحياته . ولنترك له أمر تعلم مايحتاج اليه فى المستقبل الى المستقبل ، وهو يسعى لمعرفته ، اذا كانت ثقافته المدرسية صحيحة ، مهما كانت درجتها .

فنحن اذا لانقصد من ايقاف سيره المدرسى عند حدود استعداده ، أنه لن يستمر على التعلم ، ولكنه فى هذه الحالة لن يستطيع الاستمرار الا بالتحصيل الذاتى الحر ، ومع قيامه بالعمل . ولا تخشى أن يترك التحصيل الا اذا كانت ثقافته غير مركزة ، شأن من يتخرج من المدارس التقليدية . أما الذى تكون ثقافته متلائمة مع نفسيته ، ومنسجمة مع فؤاده ، فسيظل متعطشا لانمائها وتقويتها طول حياته . ولن يعدم وسيلة لذلك ، فالحاجة أم الاختراع ، فكيف اذا يسرت له أمته ، حكومة ، بدور الكتب ، والمحاضرات والمعاهد الليلية ، وشعبا ، بمؤسسات الجمعيات العلمية والأدبية ومحاضراتها .

والفرق بين من تقف به استعداداته عند حد معين وغيره ، هو أن الأول يتعذر عليه الاستمرار على التعليم المدرسى المنظم ، لاسيما والمناهج على ماهى عليه من نقص فى مراعاة أدوار الحياة وقابلياتها ، والفحوص وهى شر لابد منه بتنظيمها وتحكم الادارات والفاحصين ، فيليق به التحصيل الحر الذى يختار له وقته بحريته دون أن يحسب (لبيع) الفحوص أى حساب ما ، وهى على الشكل الذى نعرفه . ولا يقف ذلك مانعا من استمرار من كان من النوع الأقوى فى الاستعداد ، وهو النوع الثانى فى تقسيمنا هذا !

فالتوجيه الثقافي اذن ضروري ومهم ، حفظا للشباب من الأمراض النفسية ، وحرصا على المجتمع من اضرار ثرثرة من يتعلم ولا يتثقف ، ومن أخطار شغبهم ، لاسيما اذا تمكنوا من الحصول على الشهادات دون أن يتثقفوا فجهل بسيط خير من جهل مركب ذي شهادات .

وهذان التوجيهان ، السلوكي والثقافي ، يؤثران تأثيرا كبيرا في تكييف التوجيه الاجتماعي ، فتقوم مؤسساتنا الاجتماعية ، من خيرية وأدبية وعلمية وسياسية واقتصادية وغيرها ، على أسس متينة ، اذ تصبح بالتوجيه الصحيح منبثقة عن نفوسنا ، عقيدة ومبدأ وهدفا ، فلا نقلد الغير بها تقليدا يجعلها شكلية ، أو صورا لاروح فيها . وبهذا فقط تستجيب لحاجاتنا وتتفق مع تطورات حياتنا ، وتساعدنا على التقدم والرقي ، والا فانها تظل شاغلة لنا عن حقائقها وفضائلها ، بمشاكل الرئاسة وغيرها ، فتصبح هدامة بما تسبب من تفرقة في الصفوف ، وانقسام بين الأعضاء ، لترهات وتوافه من الاعتبارات ، وهي انما وجدت للبناء .

ووسائل التوجيه على أنواعه سيأتي بحثها في التوجيه المسلكي ، وقد أفردنا له البحث الآتي لأهميته العملية ، ولأنه التوجيه الذي يراه الشباب أكثر ضرورة لهم .

٤ — التوجيه المسلكي أو المهني

لابد لكل شاب يرغب في أن يحيا حياة انسانية حرة ، يحافظ فيها على استقلاله الذاتي وكرامته ، وعلى استقلاله السياسي ومجد أمته ، من أن يختار مهنة أو مسلكا يتخذه وسيلة لكسب معيشته بعرق جبينه وبكده . لا يحتفظ بكرامته من يحتاج الناس ، وقديما قال العرب : « أحسن إلى من شئت فأنت

أميره ، واستغن عمن شئت فأنت نظيره ، واحتج إلى من شئت فأنت اسيره».
فلا يجوز للشاب أن يفسح ، بكسله وقصر نظره، أي مجال لأسره في رجولته
اذ بذلك يصبح عبد الغير ، وعبد الغير ذليل مقهور ؛ فهو ان لم يستطع
الامارة فليتهيأ ليكون نظيرا لغيره من المواطنين . والواجب الديموقراطي
يقضي بأن لا يسمح لأحد بانشاء الامارة لنفسه ، فالامارة للامة، وكل فرد فيها
يجب أن يكون سيدا ، فتسود الأمة بالاسياد التي تتكون منهم . ولا يتم ذلك
إذا اكتفى الشاب بالحصول على الشهادات ليطرق الأبواب ويتسكع على
الأعتاب . فليكن له مهنة يعتز بها ، وقد قلنا وأثبتنا أن لا حقارة في العمل ،
وهذا هو اتجاه المدارس الحديثة اليوم ، وهي تجبر الشباب في مدارسها على
العمل في معاملها وفي مصانعها ، وزاد الشغف عندها بالعمل حتى أصبحت
تسمي الصفوف فيها معاملا . فمبدأ احترام العمل مبدأ أساسي في مجتمعنا
اليوم ، ولن تتحقق الديموقراطية الحقيقية الا به . كفانا ترفا في العلم وفي
التعليم ، فان هذا الترف هو اشد خطرا من الترف المادي .

يجب على الشاب أن يعنى بتوجيه نفسه لمهنة معينة . أو لمسلك محترم ،
ويقصد بالمهنة ماله صلة بالأعمال اليدوية خاصة ، كالنجارة والحدادة وغيرها
وبالمسلك مايعتمد على الأعمال العقلية خاصة كالمحاماة والطبابة والهندسة
وغيرها ، مع ماللنظريات من تأثير كبير في النوع الأول ، وما لليد من عمل
في النوع الثاني . وليس مايمنع من اعتبار المهنة مسلكا والمسلك مهنة ، وهذا
واقعي ، فنحن في عهد المساواة في الاعتبار بين جميع الأعمال . وإنما أوردت
ماسبق زيادة في الايضاح ، لا تفريقا بين المتساوين في الأهمية والشرف .

ولأن كسب المعيشة وما يترتب عليها من نتائج نفسية ووطنية واجتماعية
ليست الهدف الوحيد من التوجيه المسلكي فهناك هدف آخر لا يقل عنها

openkandari.com

أهمية ، هو الهدف الثقافي . فقد أثبت التحليل العلمي أن للمهارة العملية تأثيرا عظيما في تفهم النظريات وتجنب التصورات الجزئية . فتبادل التفاعل بين النظريات العلمية والمهارة العملية مبدأ مسلم به علميا فالنظريات المدركة ادراكا صحيحا تؤثر في تسهيل المهارة العملية وفي سرعة التمرن عليها ، والمهارة العملية تزيد في توضيح النظريات العلمية وتركيزها ونضجها . فلا غرو إذا اهتمت المدرسة الحديثة بايجاد المعامل والمصانع في ابنيتها ، وأوجبت العمل بها . فلها بتحقيق ذلك أهداف عدة : التربية على احترام العمل . اكتساب مهارة عملية تساعد ثقافيا على انضاج النظريات ، مساعدة الشاب على توجيه نفسه باختيار مهنة تليق باستعداده .

اتخذت المدارس الحديثة وسائل عدة لمساعدة الشاب على توجيه نفسه منها هذه المعامل والمصانع ، ومنها ما نقوم به من دروس واختبار وارشاد دون أن ننسى اتصالها بالأهل والأولياء ، وبالشاب نفسه . وقد أنشأت لجانا خاصة للتوجيه ، تبنتها الحكومات ، حتى في توجيه الجنود في أعمالهم العسكرية والحربية ، وتعاونت مع أرباب المدارس الحديثة وكثير من المؤسسات العلمية على ايجاد مؤسسات للدراسات النفسية ، وليس لها هدف سوى إيجاد وسائل العمل بصورة علمية دقيقة ، ومنها الاختبارات النفسية وهذه المؤسسات تستخدم اليوم مختبرات تحوي أحدث الآلات والادوات للقيام بهذه الدراسات ، والمقاييس اللازمة لها .

وإلى أن تنشأ في البلاد العربية هذه المؤسسات وتلك اللجان ، على أن تخرج من دوائر الجهود الفردية الضيقة ، إلى دوائر جهود مشتركة بين الاختصاصيين ، تكون أفسح مجالا وأوسع عملا وأكثر دقة . فلا يجوز أن يترك مستقبل الشباب للجهود الفردية ، مهما سمت معرفة الافراد ونحن

ندعو لذلك منذ عشرين عاما تقريبا ، فى جميع البلدان العربية ، باتصالنا بالحكومات وبالعلماء وباللجنة الثقافية فى الجامعة العربية ، ونرجو أن يتحقق هذا المشروع الحيوى فى زمن قريب ، لما نرجوله من تأثير فى صحة توجيه الافراد والجماهير وفى مساعدة المعامل والمصانع والمؤسسات على توزيع الأعمال حسب الاستعدادات ، وما قد يطرأ عليها من تبدل مع الزمن .

واننا نغتنم فرصة نشر هذا الكتاب لنقوم بالدعوة الى هذا المشروع وما يتفرع عنه من مشاريع ، مرة أخرى ، علنا نجد بين القراء من يقدر على تحقيقه ، أو من يحاول المساعدة فيتعاون مع غيره فى هذا العمل الاجتماعى الخطير ، وقد أصبح علماء النفس يرون ، بسبب هذه المشاريع ، ان العلوم النفسية ستكون هى الوسيلة الفعالة لتنظيم العالم وتحقيق السلام .

والى أن تنشأ هذه المؤسسات لابد من أن نعرض للشباب بعض التوصيات العملية ، متجنبين التعمق العلمى ، لتكون وسائل مساعده يحاول بها سبر نفسه ، ما أمكن ، وادراك استعداداته ما استطاع الى ذلك سبيلا .

يجب أن نواجه الحياة بمشاكلها ، وأن لانحجم . وهذه هى مشكلة تلك المشاكل . فكيف نحاول حلها ؟

ان اختيار المهنة عمل دقيق ، فلا بد فى اختيارها من مراعاة الامور الآتية :

(١) يجب أن نحاول ادراك أسرار المهن التى نميل اليها ادراكا كافيا يجعلنا نتصور تصورا تاما ما يتصل بها من أعمال . وما تقتضيه أعمالها من جهود وذكاء ودقة ، دون ان نهمل الاستعداد الجسمى وصحة اعضائنا وقوتها على تحمل التعب . حضرت مرة لجنة توجيه فى باريس ، وهى تقوم بأعمالها واذكر ان شابا كان ينوى ان يتوجه فى دراسته العالية الى الطبابة . ولكن

اللجنة اكتشفت فى نفسه قوة ضعيفة . وهى سرعة الخاطر . ولما كان لهذه القوة اهميتها فى تشخيص الامراض ووصف العلاجات ، نصحته بالعدول عنها ، خشية من ان يفشل فيها ، ولو نجح فى الامتحانات ونال الشهادة . ولما ناقشهم ، ومناقشة الشباب ضرورية فى هذه اللجان ، وكان يعتقد بنفسه العكس ، برهنوا على صحة فكرتهم بما اثبتته الاختبارات المتوالية ، واوردوا له الامثلة التى اقنعته ، فقرر تغيير اتجاهه ، وطلب اليهم مساعدته على ذلك فوعدوه ، وبعد الدرس نصحوه باختيار عمل يدوى يتلاءم مع وضعه الجسمى والنفسى .

فمن المصلحة ان لايستولى الغرور على الشاب ، فعليه ان يتعرف بحقيقة نفسه ، وان لايخجل من طلب مساعدة الآخرين ، من اصدقائه واهله ومربيه ، للوصول الى الحقيقة وعليه ان يرحب بالحقيقة ، اذ بذلك مصلحته .

ان معرفته بخفايا نفسه تساعده على درس امكان الانسجام بينه وبين المهنة التى يريد اختيارها .

(٢) يجب ان لاتمنعه محاولته ادراك اسرار المهن التى يميل اليها من محاولة ادراك اسرار ماامكن من غيرها ، فقد يكون جهله بها هو الذى يبعده عنها وربما يجد فيها ماهو اكثر ملاءمة لوضعه ، وتكون هى ضالته .

ومن المستحسن ان يحاول معاشرة من يتعاطى المهنة التى يريد اختيارها ، وان يستأذنه فى مساعدته احيانا فيما يمكنه من عمل ، لان الاختبار الذاتى يضعه امام الواقع ، فيواجه الحقائق مواجهة مباشرة .

(٣) لايكفى ان يتفق العمل مع ميول الشاب ، بل يجب ان يكون ملائما لما عنده من استعدادات وامكانات .

(٤) يجب ان يختار عملا يؤمن له من الربح الحلال الشريف ما يكفيه في الحصول على حاجاته الضرورية على الاقل .

(٥) لابد من أن يكون العمل المختار متلائما مع كرامته الانسانية ، وواجباته الوطنية ، ومكانته الاجتماعية ، كانسان حر مهذب . ولا يقصد بذلك تحقير بعض المهن ، فالمهن كلها شريفة ، ما دامت تجنبه التذلل والاستجداء . وإنما هنالك مسالك غير شريفة كبعض السمسرات ، وكالقمار ، وغيرهما .

(٦) أن يملأ العمل المختار قلبه ودماغه ، فتتركز في نفسه روح العمل ، وحبه ، وتنبعث في نفسه خير السجايا المسلكية ، وقد كاد الانسان يفقدها في عصر الآلة .

(٧) لا تحتقر عملا تميل إليه ، مهما كان حقيرا في نظر الغير . فنجاحك منوط بميلك لعملك ، وحبك لهنتك ، لا بنظر الغير إليها .

(٨) لا تخش أن تبدأ بعمل صغير ، فتنميتك لعملك بنفسك ، ادعى لنجاحك وتفوقك .

ذكر لي أحدهم يوما القصة التالية :

« كان ثلاثة من الشبان المهاجرين من الأرض يتجولون بين المصايف في صيف ١٩٣٥ ، وكان أحدهم يتعاطى صنعة اصلاح الأحذية القديمة ، والثاني صناعة التنك ، والثالث إصلاح الأواني الفضية وتنظيف المعادن . وكانت تظهر عليهم مظاهر الثقافة . فسألناهم عن حقيقتهم ، فتبين لنا أنهم طلاب في معهد الصيدلة في بيروت ، يعملون طوال أيام الصيف ، وهم فقراء ، ليدخروا رواتب المدرسة ونفقاتهم الخاصة في أيام الشتاء . ولفت

نظرنا أنهم كانوا فرحين فى أعمالهم هذه ، وكنا نلاحظ أن عملهم كان أكثر دقة وإتقانا من عمل الآخرين غير المثقفين ، لأنهم كانوا يطبقون فى أعمالهم البسيطة ما تعلموه فى المدرسة . وقد أصبح هؤلاء اليوم من أصحاب الصيدليات الكبيرة المعروفة ، يبنون مستقبلهم بأيديهم مذللين الصعاب ، وهم ينظرون الى الحياة نظرة الهازىء بصاعبها ، ويجمعون الثروات » .

وليست هذه بالقصة الوحيدة فى نوعها ، فهناك حوادث عديدة شبيهة بها ، تثبت أن السعادة ، لا تشع أنوارها إلا من خلال نفوس أمثال هؤلاء العصاميين ، وهم لا يجبنون عن البدء فى أعمالهم ببساطة وقناعة .

فاحترام العمل ، والجرأة على البدء فى الحياة ببساطة دون أن نتجنب الأعمال الصغيرة فى مظاهرها ، عنصران أساسيان من عناصر النجاح والتوفيق .

ولعله من المفيد ، فى هذا البحث المقتضب عن التوجيه ، أن أوجه نظر الشباب الى ما يأتى[1] :

لاحظ نفسك وادرس كوامنها ، ولا يقدر على ذلك غيرك ، ما دامت مؤسسات علم النفس لم تنشأ بعد . ولعلك تجد فى مساعدة المربين المثقفين فائدة لك ، وحاول الاجابة على هذه الأسئلة :

(١) هل يتجلى نشاطك وإبداعك واطمئنان نفسك ، بتأثير تشجيع من حولك ، وبنسبة هذا التشجيع ؟

---

(١) اقتبست بعض فكرات هذا البحث من كتاب بوردان فى علم النفس الحيوى وبتصرف .

(٢) هل أنت من الذين يتكيفون حسب المحيط بمرونتهم ؟

(٣) هل أنت من يتبعون نمطا خاصا فى الحياة ، تستخلصه من تجاربك ولا ترجع عنه لأنه يتوافق مع نفسيتك ؟

(٤) هل تجمع فى نفسك كل هذه الظاهرات ؟

فإذا سيطرت عليك الحالة الأولى فأنت من النوع الاصطحابى ويفضل أن تختار الفنون وما يشاكلها .

وإذا تجلت فى نفسك الحالة الثانية فأنت من النوع اللحنى ، ويفضل لك اختيار التجارة ومعاطاة الأعمال وما اليها .

واذا كنت من النوع الثالث فأنت من النوع التوازنى ، ويفضل لك الأعمال الجندية ، وما يماثلها .

أما اذا كنت من النوع الرابع ، فأنت مرتبك يجب عليك أن تعدل مزاجك وتختار ما يتناسب مع الأقوى من هذه المظاهر .

وهناك دلائل أخرى تتميز بها هذه الأنواع . منها المرض فالاصطحابى واهم ، غالبا ، فى أمراضه . يمرض لأقل اخفاق ، أو لأقل جفاء من محيطه ، ويشفى لأقل تشجيع ، ولا يؤثر فيه العلاج ، بصورة عامة ، لأن الأمر يتعلق بتوازنه النفسى الفيزيولوجى .

أما اللحنى فانه يتعرض لجميع الأمراض ويشفى عادة بالمعالجات العادية .

أما التوازنى فانه يحير الأطباء فى معالجته .

والمركب تظهر فيه الحالات الثلاث .

وهذه خطوط كبرى ذكرتها لإنارة طريقك ، علك تستطيع الاستفادة منها بصورة اجمالية . واعلم أن الحالات النفسية لاتكون بسيطة فى الأحوال العادية ، وانما تكون مركبة من نوعين على الغالب ، فيكون الشاب اصطحابيا لحينا ، أو توازنيا اصطحابيا ... ، مثلا ، ويتغلب أحدهما على الآخر . وقد تجتمع الأنواع الثلاثة فى شخص واحد ، ويكون عادة مشوشا مرتبكا .

ليعن الشاب ، اذا استطاع اكتشاف هذه الظواهر العامة فى نفسه ، مباشرة ، أو بمساعدة مربيه ورفاقه ، أو بعض الاختصاصيين ، أن يغلب أحد الانواع فى نفسه ، دون أن يحاول الغاء الآخر ، وليكن الأقوى ، اذ هو الذى يتجانس مع المزاج ، ويعتبر فطريا . واذا تحكم هذا وتجاوزت قوته فى النفس حدودها الطبيعية ، فيعمل على تقوية النوع الآخر ، ما أمكن . وذلك بطريقة توجيه الارادة والايحاء ومساعدة المطالعة وكيفية اختيار مواضيعها . فتكثر المطالعة والاستماع ، لينمو تذوقك لكل مايتناسب مع النوع الذى يهمك تقويته ، كالفنون ومايتعلق بها للاصطحابى ، وما يتصل بالأمور العسكرية ، والتنظيم الدقيق للتوازنى ... الخ ...

اكتفى بذلك ، لان ما يزيد يتعلق بأرباب الاختصاص ، لاسيما وفنون التوجيه لا تزال فى بدء تكونها ، وهى تتكامل ، ويؤمل أن يساعد تكاملها على ايجاد قواعد أيسر منالا ، وأوسع امكانية فى الانتشار وفى التطبيق . ولعلك تجد فيما مر بعض الفائدة .

وعلى كل ، فالمهم هو شعورك وميلك وحركة نفسك المستنيرة بتجاربك واختباراتك واستشاراتك ، والمبنية على أسس التفكير والتأمل ، عمليا ،

أكثر من العاطفة والنظريات . وكن صبورا هادئا فى تأملاتك وتفكيرك قبل أن تتخذ قرارك النهائى ، فلا تبخل على نفسك ببذل الجهد والتأنى فى تدبير أمورك ، واياك أن تكون عنيدا ، وان كنا نرحب بتمردك . فالقضية ليست قضية بسيطة أو موقته ، فهى قضية مستقبلك طول حياتك .

انها جديرة بأن ينظر اليها من الوجهة الجدية ، برزانة ورصانة ، ولا يجوز فيها الاهمال أو الاستهتار .

قلت اننا نرحب بتمردك ، لان التمرد الصادق البريء هو من حقوقك الطبيعية ، وعليه ركز كثير من الرجال العظام ، فى السياسة والعلم والاختراع والاصلاح ؛ عظمتهم . ولا يكون التمرد بريئا الا اذا انبعث عن عقيدة صادقة وادراك صحيح . فى هذه الحالة يكون التمرد بشير خير ، اذ به يمتنع فؤادك عن قبول الفكرات السيئة ، وهذا مادعوه التمرد الداخلى ، أى تمرد النفس فى داخلها عن قبول أى فكرة تلقى فى قرارتها ، ولا تتفق مع تكوينها الذاتى . فتتمرد على الفكرات السيئة ، اذا كانت صالحة ، وتتمرد على الفكرات الصالحة ، اذا كانت سيئة فى تكوينها وفى هذه الحالة ينقلب التمرد الى عناد ، اذ يصر العنيد على الاستمرار على حالته ، ولو ثبت له خطأه . والعناد خطير دائما . واذا كان التمرد لفكرة سليمة ومبدأ صحيح دليل الشجاعة والتوازن ، فالعناد ، وهو الرغبة فى الاستمرار على الحالة التى الفتها النفس ، ولو كانت رديئة سيئة ، والوقوف عند أى قرار اتخذ ولو ظهر خطأه ، يعتبر جبنا وطيشا . ولا راحة لعنيد ، لاسيما اذا كان عناده داخليا ...

واما التمرد على الخارج ، فهو التمرد ذاته فى مفهومه ، ولكنه يتعلق بالصلات الخارجية ، فتأبى ان تعاشر من خبثت طويته ، او ان تتأثر بمن يبقى استمرارك لمآربه ، وتأنف من الاصغاء لمن يريد ان يلقى بزور الشرور ... الخ ...

وقد يتخذ هذا شكل العناد إذا اثر عليك في ابائك وانفتك الهوى والوهم فتمتنع ، مثلا ، عن معاشرة الناس ، لأنهم بنظرك اشرار ، او تحاول الضرر للضرر في الناس ، لأن احدهم اضر بمصلحتك يوما ... الخ ... فهذا وهم خاطىء ، وهوى مضلل . ولا يدل هذا العناد ، وما يماثله ، على أي اتزان او نبل . وإنما يدل على قصر في النظر وسخف في التفكير فانتبه !..

وإنني واثق ان الوالدين ، في ضدهما وشفقتهما وحكمتهما ، يفسحان المجال لفلذات الكبد ، من ابنائهما الشباب ، في دراسة اوضاعهم بذاتهم واتخاذ القرار المناسب ، ففي ذلك خير الوالدين وخير الشباب . على الشباب ان يتحمل تبعة مستقبله ، وعلينا ان لا نبخل عليه بالارشاد والنصح والتدريب .

ومن حق الوالدين ان يقاوموا عناد الشباب من ابنائهم ، وان يمقتوه ، ولكن الحنو الوالدي والشفقة والرحمة ، تقضي بان يكون في صدورهم متسع للحلم على المتمرد الصادق في تمرده ، او من يعتقد ذلك من الشباب فيأخذونهم بالتؤدة واللين والاقناع . ولا غضاضة على والد حنون ، أو والدة شفوق ، إذا رجعا إلى رأي ولدهما ، كلما تبين صوابه ، ففي ذلك انصاف وعدل ورحمة ، جزاؤه بر الشاب واحترامه وقلبه ، عندما يتمتع بالرجولة الصحيحة ، وبر الفتاة واحترامها وقلبها ، كلما شعرت في انوثتها الكاملة بنور الهداية ينبعث من نفسها الطليقة لينير قلبها ودماغها ، ويسدد خطاها .

ومن أولى من الآباء في حنوهم ، والأمهات في شفقتهم . في السماح لوثبات الانطلاق في الشباب ، تلك الوثبات الحرة التي لا يكون فيها اي اثر للفوضى ولا للعناد ؟... وترك الطبيعة حرة طليقة ، على ان تكون مستنيرة في الوقت ذاته ، لا تترك اي مجال للفوضى في العمل ، ولا للعناد في الخطط !...

obeikandl.com

الخاتمة

الملخص

حقيقة الحب الحب المزيف

الخلاص

obeikandl.com

obeikandl.com

خلاصة ما تقدم

أزمة المعيشة من ازمة الحياة . وهذه تفتك بمبادىء الحضارة وتهدمها وإذا صلحت المدنية وسيلة تساعد الحضارة على التقدم والانطلاق فانها لا تصلح غرضا بذاتها . واذا أصبحت المدنية غرضا توارت انسانية الانسان واستعبدته المادة منتقمة لذاتها .

لاسبيل لانقاذ الحضارة الا بيقظة الشباب الواعية . واذا كانت اليقظة بلواء ، اعادت الأمم للنوم والاستسلام . فعلى تكون الشباب ويقظته تعلق الأمم آمالها ، وتركز نهضتها .

فلا بد من حل مشاكل الشباب ، وهو امكانيات يجب ان تتحقق على خير الوجوه ، لتنعم الامة برجولة شبانها وانوثة نسائها ، نبيلة كريمة وابية . ومشاكله في نفسه تتلخص بتناقضاته واضطرابه وانفعاله وارتباكه . ومشاكله مع محيطه تتلخص بنزاعه للكثير من التقاليد والآراء والعقائد والأعمال ...

والمهم في تربيته تحقيق مبدأي التركيز والاتزان بقيام كل من المربين والشباب بالواجب الطبيعي في تكامل تكون الرجولة في الشبان والانوثة في الشابات . والواجب الطبيعي يقضي بأن يقوم الشباب بتربية نفسه ، بحرية وانطلاق مع مراعاة الفروق بين الحرية والفوضى ، والتمرد والعناد . وعليه أن يأخذ بعين الاعتبار مبدأ تبادل الثقة بينه وبين من يعنى بتربيته .

وتبادل الثقة ضرورية في التربية وفي التوجيه . اذا الطبيعة تقضي بأن يوجه نفسه كما يجب ان يربيها ، بارشاد اوليائه ومساعدتهم . والتوجيه يتعلق بسلوك الشاب وثقافته واعماله الاجتماعية واختياره مهنة يكسب بها معيشته فيجب ان تملأ مهنته قلبه وان تنعم بحبه وميله لتغدق على حياته السعادة والحياة . فلا يجوز التعجل باختيارها ، كما لا يجوز له الاستبداد برأيه في ذلك .

١ — حقيقة الحب

أيجوز لنا ان ننهى مباحث هذا الكتاب ، كتاب الشباب ، وهو منهم واليهم ، يحاول ان يعبر عن حياتهم ، وان يحل مشاكلها ، ما امكنه ذلك ، دون ان نذكر فيه كلمة عن الحب ، ولو موجزة ؟

افلا يكون ذلك تجاهلا منا لحقيقة الحياة الانسانية ، والحب اقوى عناصرها فعلا فى تكوين انسانية الانسان ؟

أترفع القلم عن كتاب فى الشباب وللشباب ، ونتناسى ما لعامل الحب من أثر فى تحقيق أنوثة النساء ، ورجولة الرجال ؟

لا أدرى من هو الذى افسد على الحب سمو معناه !... ولا اعلم لم حلت على ارفع ظاهرة نفسية ، نقمة الكائن الحى الذى لا تتحقق انسانيته ، فى اعلى مراتبها ، وفى ابهى حللها وأروع مآتيها ، الا به ، حبا صافيا خالصا يرتقى بالنفوس إلى سماوات الحق والخير والجمال ؟ ....

اذكر اننى كنت اسمع فى طفولتى كلمة الحب ، ولكن موشوشة بين النساء ، ولا اذكر انى سمعتها مرة من والدى . ولا اعتقدان احدا من لداتى او اترابى سمع اكثر مما سمعت : ولا ازال اذكر ان حب الرجل لامرأته كان امرا منكرا فى ذلك الزمن ، اما حب المرأة لرجلها ، فتلك هى الفضيحة !.. وإذا تعرضت احدى السيدات المحترمات فى حديثها لهذا النوع من الحب ، بين الرجل وامرأته أو بين امرأة وزوجها ، فقـــد كانت تذكره بصوت منخفض ، وأمارات الدهشة والاستنكار ظاهرة على وجهها ؟ ! . . لذلك كنا نخجل اذا ذكرت كلمة الحب ، ولا نذكرها ....

والغريب أنه هكذا كانت حالة السيدات ، كلما تعلق الحديث بالواقع . أما الحكايات التى كانت تقص علينا من قبلهن ، والاغانى التى كن يتغنين بها

و نتعلمها منهن ، فانها كانت ملأى كلها بذكر الحب وحوادثه . وكنا نسمعها نحن الصغار ، ونرددها ، بانفسنا وأمام الجميع ، دون ان نخجل ، أو أن يخجل منا احد ! ... فالحب الذى اخبرت انى ماسمعته الا وشوشة ، ان هو الا الحب الواقعى ، الذى يذكر مع رواية الحوادث الواقعية فحسب .

وهذا يدلنا دلالة واضحة ان الامم فى حالة جهلها وانحطاطها تهرب من الواقع ، وتخشى مواجهة الحياة ، فتعيش بالوهم والخيال والاحلام . انها تعيش فى غير العالم الذى يجب أن تعيش فيه لتحيا .

ومرد ذلك ، على ما اعتقد ، الى التصورات الجزئية وتذكراتها على ما سبق بيانه فلعله حصلت ، فى تلك الازمنة ، وعلى مايتراءى لى ، بعض تعديات على العفاف ، علقت بالحب ، وربما كانت العلاقات الشائنة تنسب اليه ؛ ولا نزال ، الى اليوم ، نسمع بمثل تلك التعللات والنسب ، فى بعض الحوادث المماثلة .

مع ان الحب ، فى حقيقته ، لايؤدى الى مثل هذا النتائج الفاجعة مطلقة فهو سمو وتضحية تنطويان على الاحترام والاخلاص . والحب الصحيح لايدنس ، ولا يتدنس !

أشرف أمير الشعراء من علياء عبقريته على الحياة ، ونظر اليها ببصيرة شاعريته ، فاذا به يراها متحدة بالحب اتحادا وثيقا ، لاانفصام له ، فعبر عن ذلك بقوله : الحياة الحب ، والحب الحياة .

وهذه حقيقة ، اعلنتها الحياة عن نفسها منذ اتخذت صفتها الانسانية وقررها العلم بتحليلاته : بالحب تتركز حياة الشباب ، وبه تتزن انفعالاته ؛ فتتحقق الأنوثة ـ بلطفها ودعتها ـ وتثبت الرجولة ـ بنشاطها وقوتها ـ فى الفتيات والشبان . وآية ذلك انزهرة الحب الفواحة لاتتفتح فى النفوس

obeikandl.com

إلا فى أواخر دور الشباب . (أى حوالى الثامنة عشرة عند البنات ، والثانية والعشرين عند البنين) . ولذلك يرى الاطباء والمربون ان لا يفكر فى الزواج من هو دون هذه السن ، أى قبل أن يكتمل النمو فى الشباب جسديا ونفسيا ؛ واذا كان اكتمال النمو الجسمانى يعلل بتمزق اطراده ، فالنمو النفسى يعلل بتفتح زهرة الحب فى النفس ، وقد يتقدم هذا السن أو قد يتأخر حسب البيئة وطارق الحياة فى الأسرة .

إن هذا الحب الذى تتفتح عنه النفس فى منتهى دور الشباب ليثبت الأنوثة والرجولة على حقيقتها ، ان هو إلا عاطفة معقدة التركيب يهتز لها الانسان ، بجسمه وروحه ، شاعراً بالانجذاب نحو شخص من الجنس الآخر ، يأنس بقربه وتطمئن نفسه لنظراته ، فيختاره دون سواه . وهو لا يكاد يبعد عنه ، حتى يشعر بالاحتياج اليه ، إذ يفقد اطمئنان نفسه ، والانس الذى استقر فى روحه . فيفكر بوسيلة تجعل الحبيب دائما بقربه ، لا يفارقه ، فلا يجدها إلا بعقد شركة الحياة معه ، أى بالزواج . لأن الحب الصحيح يتسامى فيضفى على شخص الحبيب من أى دنس . وليس الزواج سوى شكل اجتماعى للحب الصحيح : الحب الذى تحفظه المهابة ، ويحيط به الاحترام . فمن يحب حبا صادقا يحترم فى حبيبته اخفى عاطفة من عواطفها ، ويحافظ على شرفها وسمعتها ، أكثر من حرص والديها واخوتها والمقابلة بالمثل من قبلها واقعى ملموس .

وهذا الحب هو الذى يتصل بكل جمال ، يعجب به ولا يشوهه ، ثم يتصل بالجمال يسمو حتى الاسمى ، وهو الله .

٢ — الحب المزيف

قد يعتقد البعض ان كل انجذاب بين الرجل والمرأة ، أو بين الانسان ومظاهر الجمال فى الكائنات ، هو حب صادق . والحقيقة خلاف ذلك . فالصلات التى قد تربط بين الشباب من الجنسين قبل ان تفتح زهرة الحب إن هى فى الحقيقة الا صداقات ، أو التلهى والمغازلات واللعب ، وقد تصبح مشبوهة خطرة ، ولذلك ليست فى ذلك كله من الحب فى شىء ، وان توهم بعض انه حب ، إذ ينخدع ببعض مظاهره التى كثيرا ما يدخل فيها التصنع والنفاق ، الحب المزيف الذى تتألم الانسانية من اخطاره : ولذلك الدر أن يعقد زواج تحت تأثير هذا الحب المزيف ، ويكون موفقا .

ان الحب المزيف خطر ، يجب الانتباه لما قد ينتج عنه من اضرار للشابة وللشاب ، انه هوس ، وليس بحب ، فى الحقيقة فقد تتهوس الفتاة بشاب ، وقد يتهوس الشاب بفتاة ، ثم قد يجد بعد مدة نفسه مخدوعا ، أو قد تجد نفسها مخدوعة ، بعد تضحيات قد تؤلم وتورث المصائب كل الحياة .

ومن القواعد المقررة ، والتى أود أن أوجه اليها نظر الشابات والشبان هو ان زهرة الحب لا تتفتح فى كل النفوس ، فقد يتجاوز الشاب أو الشابة دور الشباب ولا تتفتح الزهرة ، وقد لا تتفتح أبدا .

وان لسوء سلوك الشاب أو الشابة ، وللهوس الذى يفتك بقلب كل منهما تأثيره الكبير فى خماد شعلة الشباب ، فلا تتفتح زهرة الحب المنقذة من اخطار الهوس والانجذاب الذى يسمى خطأ حبا ، وما هو إلا حب مزيف .

ان من يفسد فى دور شبابه ، ومن تجذبه طفولته ، فينتقل من الشباب الى الرجولة ، ليظل رجلا طفلا كل حياته ، ومن يعجز فى شبابه أن يكافح

obeikandl.com

ميوله الدنيئة ، ويخضع لشهواته الجسدية ، وشرهه ، لن ينعم بتفتح زهرة الحب ، ومن هؤلاء تنشأ الفواجع الملوكية ، والامراض النفسية ، وبهم تنتشر الأوبئة الاجتماعية الفتاكة ، فليدرك ذلك الشباب ، لاسيما الشباب المثقف ، من الجنسين ، وليتعمق بقداسة الحب ، الذي هو حقا حياة الانسان.

فالحب الحقيقي لايكون إلا حبا شريفا . فمن لم ينتبه لذلك ويدفع مع تهوسه وشهواته ونهمه ، من الشباب ، يوجهه تهوسه هذا توجيها فاسدا ، فيرديه ، اذا لم يتدارك أمر نفسه قبل فوات الاوان لا تتهموا الحب ، فالحب فوق الشبهات ! ... وإن اتهمتم ، فاتهموا أنفسكم وهوسكم قبل كل شيء . وكل انسان أدرى بما فى نفسه ، ومانطوت عليه من نيات ومقاصد فليردع نفسه ، وإلا انتقمت الحياة منه ، ومن أبنائه !...

ليحفظ الشباب نفسه وامته ، وليجعل شعاره هذه الحكمة : اعرف نفسك ، وكن منصفا .

٣ — الخـــلاص

أتريد مخرجا من هذه المآزق التى يدخلك فيها هوسك أو طيشك أو جهلك شابا كنت أو شابة ؟ . . الامر بسيط . طبق نظرية التخلص من أعراض الامراض العصبية بمعرفة أسبابها . وهوسك عرض نفسى تتخلص منه بسهولة متى عرفت وأيقنت انك فى دور لم تتفتح فيه زهرة الحب فى قلبك ، وان الحب الصحيح لايدفعك لأى عمل شائن مع من تحب . فاذا شعرت بدافع من هذا النوع ، فاعلم ان حبك مزيف ، ولو كنت فى سن الرجال .

ونصيحتى الى الفتيات خاصة ، وليسمح لى أن أكون صريحا نوعا ، نصيحتى اليهن ان يحتقرن كل شاب ، لاسيما اذا كان خطيبا ، يحاول ان

يستبق الحوادث ، فيطلب ما لا يجوز تلبيته اليه الا بعد حفلة الزواج . إن التساهل نتائج خطرة ، قد تسلب الراحـــة والطمأنينة كل الحياة ، والتي تتساهل تحتقر ، ولو بعد الزواج . فكم من حياة منزلية سادها الاضطراب والشكوك ، وخسرت كل طمأنينة منزلية ، لذكريات تتصل بمثل هـــذا التساهل . ومن كان قوى الملاحظة دقيقها ، وتأمل فيما يجرى حواليه ، يجد أمثلة عديدة تؤيد هذه النظرة .

ليرتفع كل من كان فى دور الشباب بعواطفه ، وليعاون نفسه على نفسه وليأثر بالفنون الجميلة بمظاهرها : التصوير ، والموسيقى ، والآداب وغيرها فان ما تمنحه هذه الفنون من آثار ، بين آثارها الموفقة ، ترتفع بالنفس ، وتوجه عواطفه ، وتجعله أهلا لتفتح زهرة الحب الصحيح فى قلبه . وتفتح هذه الزهرة نعمة يجب أن لا يتجاهلها شاب ولا شابة .

وليعلم كل من هو فى دور الشباب أن لسوء استعمال قوى الحياة أخطارا فتاكة ، ولا أقصد ما قد ينتج عنها من أمراض جسدية فحسب ، بل أقصد أيضا ما تحدثه فى نفس الشاب من جفاف . وانى أذكر أن أحد كبار الفلاسفة نسب الجفاف فى أمته ، فى عصر من عصور خمولها ، إلى العادات السرية ، وكان على حق . فليحذر الشباب مغبة العواقب ، فلا يكون وبالا على نفسه وعلى أمته .

ليدرك الشباب جيدا انه فى زمن شبابه يكون رجولته ، وانه سيكون فى المستقبل على الشكل الذى أراده لنفسه فى دور الشباب الخطر .

اختزن فى فؤادك فكرات كبيرة ، تتفاعل فيه ، فتبعث فيك الميول السامية . واستعن بتذوق آثار الفنانين العظام ما أمكنك ، وتمرن على هذا التذوق بتفهم وادراك ، فانه يقوى تفاعلات الفؤاد ، وقد يكون حافزا لها ،

فتسمو بك وتجعلك عنصرا فعالا فى بناء الحضارة ، وفى العمل على الارتفاع بها إلى العلاء ، وتصبح عامل خير وبركة على نفسك وعلى أمتك وعلى الانسانية جمعاء . إن للفرد قيمته العظمى فى المجموع مهما كثر عدده ، فى حالة واحدة ، هى عند مايكون ذلك الفرد انسانا .

قال شيلر : « إن المروآت الجميلة هى التى تجعل الحياة خصبة وسعيدة » .

فاجعل أيها الشباب حياتك خصبة وسعيدة بوعيك وتساميك ، وتجنبك الهوس والانخداع بالظواهر ، واحتفظ بشبابك لهرمك ، لتعيش حياتك كلها شبابا ، فالانتقال الى الرجولة لايعنى انتهاء الشباب وانطفاء شعلته ، وإنما يعنى استمراره بشكل مركز متزن ، بعد أن تفتحت فى النفس زهرة الحب الخالدة الفواحة ، وهى التى لايستمر شباب بدونها ، احتفظ اذن بشبابك وتأكد ان الانسان ابن إرادته ، واذكر دائما ما أوصى به أحد شعراء العرب الشباب بقوله :

اما الشبيبة والنعـــــيم ، فانني
لم أدر أيهـــــما ألذ وأنضر !

حتى انقضى عهد الشباب ، فبان لى :
ان الشباب هو النعيم الأكبر !

لاتخـــــدعن عنه ، إذ بائع ساعة
منه ، بدنياه جميعـــــا يخسر !

تم الكتاب

تصويب

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
٨	١٦	المجندين	المحبذين
١٠	٤	مثيلها	قبلها
١٠	١٨	وأقيم	وقيم
١٠	٢٠	الكلب	القلب
١١	٢١	علوية تذوق الجمال	علوية فى تذوق الجمال
١٢	٦	يتآ كل	يتآكلان
١٢	١٧	فان نحن	فاين نحن
١٤	٩	استهزام	استخدام
١٩	٣	ولو خوف	ولولا خوف
٢٢	٤	اسمى فطهر	اسمى مظهرا
٣١	١٤	ألم تكن فى للحياة هذا	ألم تكن للحياة فى هذا
٣٩	١	إذ	إذا
٤٠	١٥	الرؤس	الرؤى
٤٣	٤	وبين	وبأيدى
٤٣	١٣	بايقاع	إيقاع
٤٥	٧و٨و٩	تحي . نحي	تحيا. نحيا
٤٧	٢	أيدعون	يدعو
٥٦	٤	لا لذة	لا للذة
٥٩	٢٠	ويجحد	ويحمد
٧٠	١٤	كل من	كل ما

٧١	١٥	من الجز كلا	من الجزء كلا
٧٣	٢٠	من أثرها	فى أثرها
٧٧	٣	ومن يدرس	ومن يدرى ؟
٨٧	١٥	تكون تعاون وتعاضد	تكون تعاونا وتعاضدا
٩٥	١٥	مواريته	مواربته
١٣٣	٤	لذاتها	بذاتها
١٣٥	٦	حبه	أحبه
١٤٤	١١	مثل	أمثل
١٤٦	٦	واترانه	واتزانه
١٤٨	١٤	أمته	أمته ذلك ،
١٤٨	١٦	وغيره	وبين غيره
١٤٨	٢٠	أى حساب ما	أى حساب
١٥٠	١٧	الأول	الثانى
١٥٠	١٨	الثانى	الأول
١٥٤	١٦	من الأرض	من الارمن
١٥٥	الحاشية	بوردان	بوردل .
١٥٩	٦	فى ضدهما	فى حبهما

مطبعة محمد على صبيح وأولاده ت ٤٨٥٨٠ بمصر

obeikandl.com